مقدمة

هذه رواية كتبتها منذ أكثر من سبعة عشر عاما ثم طويتها بين أوراقي وانستني أياها مشاغل الحياة الكثيرة وعندما عدت اليها وجدت أنها لا تستحق كل ذلك الاهمال . وها أنا أضعها بين يدي القارىء الكريم بدون أن أغير فيها حتى ولا كلمة واحدة ذلك في تقديري تمثل بدرجة ما وثيقة عن شريحة من أبناء جيلي سواء في حياتهم او طريقة تفكيرهم أو معالجتهم للكتابة الروائية . ولا أرى ضرورة للمزيد من الايضاح فالرواية بالتالي تتحدث عن نفسها ...

والله الموفق

الدكتور عبدالجبار عنديل

١٩٨٧

الفصل الاول

في مساء خريفي من عام ١٩٥٩ كانت طائرة (الفايكاونت) تطير بهم على ارتفاع ٧٠٠٠ م فوق اراضي الاتحاد السوفيتي • وكان صراخ أربعين شابا عراقيا يرتفع مرة واحدة ليناقش ويمحص ويدحض بحماس وحرارة وكثير من التدفق • كانوا على ثقة من كل شيء • يناقشون كل قضايا الساعة مناقشة الخبير العليم ببواطن الامور وظواهرها • وكانوا على ثقة من ان المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين وسرعان ما يحلون جميع مشاكل العالم بين تينك النقطتين • ثم يقفزون المواضيع قفزاً • فمن مناقشة نزع السلاح الى آخر أفلام مارلين مونرو ، ومن الاقمار الصناعية الى الانطباعات عن فتيات فينا التي تركوها منذ ساعات •

وكان البعض قد تركوا مقاعدهم ليشاركوا في احدى المناقشات الحامية • وكان احمد يجلس في طرف قصي يراقب كل شيء عن كثب وبكثير من اللامبالاة واحيانا الضيق • فهو لم يعد مراهقا او هذا على الاقل ما كان يخيل اليه • وكان يطيب له كثيرا

ويرضيه ان ينظر الى كل هؤلاء المراهقين من علٍ . فله تجـاربه الخاصة التي يعتز بها كثيرا وقراءاته الخاصة التي يعتز بها اكثر . وكان خيـاله يشـطح به بعيـدا .. الى القريـة الظليلـة على الفرات . الى الام والاب والاخوة الصغار . ولكن هؤلاء الثرثارون كمن تأخذه العزة بالآثم يأبون الا ان يقطعون عليه سلسلة افكاره او بساط ريح أفكاره الذي كان يطير به بلمح البصـر الى قريته الحبيبة . يقطعونه عليه بمناقشاتهم المقرفه التي توضع نتائجهـا سلفا . وكان يكره كل المناقشات التي تبدأ من النتائج . والذي كان ايضا يمنع بساط ريح أفكاره من الطيران هو هذه الجيـوب الهوائية اللعينه والاكياس الموضوعه أمـامه للضـرورات والتي وزعتها المضيفة قبل لحظات ، وتلك الرقعة الصـغيرة المثبته على المقعد الذي أمامه والتي تقول (في حالة حدوث خلل في الطائرة فدونك المظله هنا) وكانت عيني المضـيفة العراقية ذات القوام السمهري هما ملجأه الوحيد . وكان يحتمي بهمـا كالهارب من ريح صرصر في بيداء . وكانت تظنه خائفـا فتمنحه من رعايتهـا القدر الاكبر . وراقت له اللعبه فمضى في تمثيله .

— رجاء ! ؟ سألها وهي تمر بخفة ورشاقة بين الصفين .

— بلي .. أنحنت نحوه ويدهـا على المقعـد الذي أمامـه

وحاجباها المقوسان يرتفعان اكثر وعيناها البنيتان تغيران الوانهما من بنيه الى حمراء فسوداء كهذا الليل الذي ينداح خارج الطائرة.

ـ بلي .. كررت وتنبه الى نفسه . يالللشيطان ! أيجب ان يكون غشيما حتى بعد ان ركب طائرة في طريقها الى القطب!

ـ كوكا رجاء ....

ـ ماكو والله . تريد صودا ؟

ـ زين ! وانطلقت برشاقه رمح سمهري . والتفت الى (هادي) الذي كان يجلس الى جواره . كان هادي ينظر من نافذة الطائرة الى الظلام السميك كحائط من فولاذ . كان وجهه بائسا كوجه أحد الهنود الحمر اذ يقع في الاسر ..

ـ مالك ؟ سأل صاحبه

ـ لا شيء ! ثم أردف

ـ ست سنين اليس كثيرا ؟

ـ ولكنك كنت تعرف ذلك عندما كنت في بغداد ! كان يجب ان تكرر السؤال على نفسك هناك وقبل ان توقع الكفالة . ولم يكن صادقا الصدق كله . فقد طرح هو نفسه السؤال

على نفسه آلاف المرات وكان الجواب دائما ايجابا حتى بدون نقاش . ولكنه هنا وعلى متن (الفايكاونت) وعلى ارتفاع ٧٠٠٠م ومع هذه الجيوب الهوائية اللعينة يجد للسؤال وقعا آخر تماما . حقا . ست سنين اليس بالكثير . هذا يعني أنه سيبقى زمنا هائلا بكل أماسيه واصباحه بكل أشهره واسابيعه وأيامه .. حتى ذلك العام البعيد .. عام ١٩٦٥ . وتخيل ذلك العام عاما جديدا غريبا غامضا . واكتسح الحسرات في قلبه صوت ناعم ودود ومرح :

ـ تفضل صودا ..

مرت فترة قصيرة ، صمت بعدها السامر . وارتفع أزيز محركات الفايكاونت فوق رؤوس الجميع وفي قلوب الجميع ولكنه لم يكن ليحول بينهم وبين ان يجتروا أفكارهم بصمت حزين ، وبين ان يسر أحدهم لجاره بين الحين والآخر بآخر كلمه سمعها من أبيه أو ان يصف بكثير من الحزن لحظات الفراق مع أمه او ما سوف تكابده وتعانيه من جراء فراقه لها . ولم يكن احد منهم ليأتي على ذكر حزنه هو وكآبته هو . فأحزانهم ليست ملكاً لهم أنها ملك أحبابهم هناك في تلك البقعة الصغيرة من ارض الله والتي أسمها الوطن . وهم لا يحزنون لان قلوبهم تتفطر لوعه ، ولكنهم يحزنون مواساة لاولئك الاحباب هناك . هكذا

كانوا يقولون !

وفجأة ارتفع صوت ربان الطائرة : ـ

ـ السادة المسافرون • نرجو ان تشـدوا الأحزمـة وتقطعوا التدخين فبعد دقائق سوف تهبط الطائرة في مطار موسكو !

وكان لهذه الكلمة وقع السحر في النفوس • فسـرت بين الصفوف همهمة سعيدة فقد تحقق الحلم • وكان مجرد تصورهـم بانهم سوف يهبطون بعد قليل فى موسكو يفوق أي من احلام اليقظة أو المنام • يا للحلـم الرائع الماتع ! وتمـر الدقائق سعيدة رائعة والطائرة تهبط بمهارة ولكن بكثير من النزق • فهي تارة تهبط هبوطا متوازناً وطورا تسقط وكأنها السقطة الاخيرة • ويخيل اليهم انهم معلقون فى الهواء وانها النهاية • ولابد دون الشهد من أبر النحل • ولكنها هنا ليست أبر النحل انه الموت دون موسكو • يا للحظ السيء ! •

وابتدأت الطائرة تهبط هبوطا هادئـا مرة اخرى • ورجع الامن الى النفوس • وابتدأ ثانية الحلم السعيد • الطائرة تهبط برفق ثم ترتطم بشيء صلب • يا للفرحة ! أنها الارض • أمنـا الارض • وسرعان ما فكت الاحزمة وامتدت الايدي تبحث عن

المعاطف والاعين تبحث عن الحقائب والرزم الصغيرة . الاه . الايداه والا عيناه . فعينا أحمد لا تبحثان الا عن شيء واحد . عنها . وازدحم الجميع فى طريق باب الطائرة عداه . واستمرت عيناه تبحثان ثم توقفتا عليهـا . رآها تشق الصفوف رمحـا سمهريا مستقيما رشـيقا ماضيا . واعترض سـبيلها . وتلقتـه ابتسامتها .

— أين سوف تكونين غدا ؟

فى موسكو طبعـا !

— أعني فى أي فندق ؟

— ربما فى فندق الاترناشنال . ولكن لماذا ؟

— لا . لا شيء .

وتحول لون عينيها البني الى احمر ثـم الى اسود . ليس يدري هل هو أنعكاس الضوء الخارجي أم ضوء عينيها ذاتـه ؟ ! ماذا يقول لها ؟ لماذا لا يكلمها بلغة الشعراء ويقول لها انها تمثل كل ما تركه هناك. ففيها رشاقة النخلة وعذوبة الفراتورقة النسيم العراقي وحنان المرأة العراقية وحرارة عواطفهـا . ؟ لا ليصمت

أحسن • وصمت ، ومضت هي وتذكر جيدا (الانترناشنال) ورددده بينه وبين نفسه •

تدافع الجمع الشاب بأتجاه الباب وانطلق أحمـد هو الاخر وقد لف نفسه جيدا بالمعطف ولف رأسه با (لخاولي) كما قيل له • وخرج من باب الطائرة ليقابله زمهرير موسكو صارما بتارا •

نزل السلم وفى الدرجـة الاخيرة حاول ان يكون رشيقا ويقفز ، فتلقاه جليـد موسكو المتحجر الاملس ،وانزلقت قدمـه بسرعة فائقة وفقد توازنه • ولولا يد الشرطي الروسي التي أدركته لحمل الى المستشفى • وهكذا هبط أرض موسكو •

الفصـــل الثاني

تعطلت عن العمل كل عوالمه الداخلية التي كان يتصورهـــا عميقة الى حد عظيم • أصابها مـــا يشبه الشلل • تعطلت ورشته الفكرية التي كان يحسبها دقيقة متقنة ومضمونة • أصاب الشلل جهازه العصبي • نسي أحلام المنام العادية التي ترود كل الناس • عقله الباطن تعطل هو الاخر • ومضت شهور طويلة قبل ان تعاوده الاحلام • الاحلام من أي نوع • الكوابيس والاحلام الوردية •

هل هو الجو البارد الثقيل أناخ عليه وهرســـه وهو الابن الاصيل للشمس العراقية اللاهبة ؟ أم هو الجوالجديد بكل غرابته جمد حواسه كلها ؟ لعله كمن يخرج من ظلمة جب سحيق الى قمة جبل شامخ فتبهر عينيه الاضواء وتزحم رئتيه التيارات النقيـــة ، اللاذعة النقاء ؟ أم هو شيء آخر ؟ •

حقا لقد قفز عوالما بأكملهـــا من بلدته الصغيرة على الفرات

الى موسكو • قفز عدة قرون • بلدته الهادئه الصغيرة الرتيبة الحياة ، وان كانهو لم يلحظ ذلك آنئذ فقد كانلاه عنه بمغامراته الفكرية عبر الآماد والمسافات من خلال الحروف • وكان يحسب ان كل ذلك درعا كافيا يقيه صدمة الطفرة الاولى وشدتها • ولكن ها هو جهازه يخونه • وهـا هي لم تجد معـه كل مغامراتـه مع تولستوي ودستومسكي وسارتر ، وها هي عوالمه ــ كعوالـم بدوي يدخل مدينة لاول مرة ــ تركع أمام جبروت الحضارة •

لم يبـك كرفاقـه حنينـا الى الوطـن ، فقد كان يقنـع نفسه بأنه يواجه قدره بشجاعة • بل انه فى ايامه تلك حتى لم يهزه الحنين الى الوطن ، فقد كان يعتبر ذلك نوعا مشينا من العواطف الانانيـة •

استيقظ بعد يومين من وصوله موسكو • غرفتـه مغلقـة بالخشب من كل انحائها • زميله الروسـي يغط في نوم الدببة • وهو اصبح يعد نفسه خبيرا بشوارع موسكو ومساحاتها مع انه لم يكن قد رأي منها الا شارع الترام والمترو والساحة الحمراء •

تلقاه الخريف المسكوفي الرائع ببعض العنف • البرد الحاد القاطع يهيمن بوقار • والجليد يتراكـم على جوانب الارصفة •

والجمهور الموسكوفي يسير بهوادة وبكثير من اللين .

العجائز يجررن خلفهن الاطفال بمعاطفهم الفرو الجميلة من لفافات ربطة الى رقابهم . بعض الامهات والجدات يدفعن عربات الاطفال ، الخالية من العجلات ، على جليد الشارع . فتنزلق بسرعة وخفة . الفتيات توردت خدودهن وهن يركضن بخفة نحو الترام . واحمد ينطلق بعزم الى فندق الانترناشنال .

عندما دلف الى الفندق كان يتعامل مرة واحدة بكل الكلمات التي يعرفها بالانكليزية والبضعة عشر كلمة التي تعلمها من اللغة الروسية .

كان البواب ينظر اليه بعطف وهو يزقر الكلمات بعنف ويصفها بدون أي ترابط .

— عراق . سعاد . طائرة .

وفهمه البواب ورطن مع موظف الاستعلامات بالروسية . وكتب ذاك له رقم الغرفة وأشار للبواب ليرافقه .

تلقته سعاد بشاشة ممزوجة بالدهشة . حاجباها يتقوسان اكثر . وعيناها تشتعلان كسراجين في دجنه . وهو يقف امامها مبهوراً مرتبكاً .

ـ تفضل .. تفضل ..

ـ لم تتوقعي ... اليس كذلك ؟

ـ في الحقيقة ... لا !

دلفت أمامه وخطا ورائها . كان في غرفتها كنبتين ومنضدة خشبية صغيرة . الحائط مغلف بالخشب الاصفر الصقيل . كل شيء في الديكور محسوب أقتصادي وعصري .

جلسا متقابلين . كانت ترتدي نفس البدلة الزرقاء الغامضة التي كانت ترتديها في الطائرة . نظرت اليه وقالت برقه : ـ قد يبدو غريبا ... ولكني للاسف لا أعرف أسمك !

ـ ولماذا غريب ؟ هذا شيء طبيعي ، ولكني أعرف أسمكِ ، أسمي احمد واسمك سعاد ! ضحكت وتساءلت :

ـ شاون انطباعاتك الاولى عن موسكو ؟

ـ كيف أفسر لك شعوري ؟ فأنا دائخ !

ضحكت وسألت :

ـ من الاجواء الجديدة ... أم من الانبهار ؟

ـ من كل شيء لدرجة لااستطيع معها استعمال مخي بحرية .

أبتسمت وهي تضع ساقا على ساق • وغض الطرف بحيـاء من لا يريد ان يرتكب أثما •

ـ كم عمرك ؟

ـ عشرون سنة أو ربما أكثر !

ـ يا لله كم أنت صغير !

وتجاهل الأهانه ولم يحقد • وقامت واتجهت نحو الجـزء الثاني من الغرفة وقامتهـا تتأود كغصـن رطيب ثم اختفت خلف الحـاجز •

ماذا يقول لها ؟ كيف يتصرف معها ؟ بل ماذا يريد منها ؟ كان يفكر ببطء وبطريقة من لا يريد ان يجد جوابا ومن لا يبحث عن جواب •

وطلعت عليه ابتسامتها الرائعه ثانية وهي تتقدم منه :

ـ تفضل شكولاته •

ـ آسف ، لا استطيع ، فلم يـدع التمر الزهدي في معدتي مجالا لحب أي نوع من الحلويات •

وضحكت وهي تقول :

ـ جرب ! واظن انها ستفرح لهذا النوع من الخيانه .

ـ لا أظن . فهي مثل الطبع العراقي لا تحب الا بأتجاه واحد!

ـ أنت فيلسوف صغير !

وخجل من (صغير) ولكنه لم يحقد !

العينان تغيران الوانهما بسرعة خاطفة من بنيه الى حمـراء سـوداء . أبتسامتها رائعة . مخه يفكر ببطء ولا يبحث عن حل . أخـذ الشكولاته ووضعها على الطبله . سألته :

ـ لست من بغداد ... مو ؟

ـ أنا من الفرات ...

ـ ولكن الفرات يمر بثلاث دول .

ـ الناس عندنا في الجنـوب ينتمـون للانهـر .. فهم لا يقولون أنهم من اللواء الفلاني ... بل يقولون هذا الشخص من الفرات او مـن الدجلة او يقـولون هـذا (فراتي) وذاك (شطاوي) ... أي من شط الدجله .

ـ يا له من أنتماء ... غريب .

ـ ولكنه الانتماء الوحيد الذي لم يتغير ولم يتبـدل ...

والشعوب عمرها من عمر الزمن !

وفطن الى أنه يتكلم عن التجريديات اكثر مما يجب سألها

ـ متى تسافرون ؟ فضحكت وهي ترد بسؤال :

ـ الى أين .. الى الفرات أم الى دجله ؟

ـ كلا ... هذه المره الى كليهما .. الى الرافدين ؟ !

ـ غدا .. نسافر الى الرافدين . هل من خدمة تؤديها أمام الفرات العظيم ؟

فضحك ولم يجب . فهو لا يدري ماذا يريد بالضبط . لا لنفسه ولا للفرات !

ماذا يريد من هذه المرأة العراقية ؟ الا يبدو معيبا ان يأتي بدون دعوه ويجلس بدون داع ويتحدث بلا دعوى ؟

وأحس بالخجل من نفسه . فنهض قائلا :

ـ أترخص ؟

ـ وين ؟ ثم أردفت بمرح ..

ـ لن أدعك تذهب ! فأنا وحيده ، الجماعه ذهبوا وتركوني، حره طوال النهار ، وعندي بعض المشتريات وأنت خير من

يساعدني. الا اذا كنت لا تريد ذلك او كنت مشغولا ؟

وكان نهارا رائعا . كانت تتحدث الانكليزية خيراً منه والعرف الالمانية والفرنسية بعض الشيء وتعرف موسكو . وعاش نهاره وعطرها الباريسي يملأ خياشيمه ويغسل كل هموم روحه .

كان عطرها من النوع الغريب . كان جزءا منها من شخصيتها او هكذا كان احمد يتصور . لم يكن منفصلا عنها . كما لو كان ينبعث من اعماقها ذاتها . من روحها . لذلك فعندما كان احمد يشم عطرها ويحتفظ به في أعماقه ، يخيل اليه أنه يشم روحها . يحتفظ بها في داخله .

... وكان حمالا جيدا وسعيدا . وحمل في آخر النهار الى الفندق معها ، أسورة الكهرب وقلائد الكهرب والفودكا والكنفيار والتحافيات واشياء اخرى كثيرة .

واكتشف انها هي الاخرى لها همومها . وان كانت **لاتمت لهمومه** عن دجلة والفرات بصلة . فهي كبرى اخواتها والمعيل الوحيد . تكبره بعشر سنين . غير متزوجه . رجل أحلامها لا يشبهه في اشياء كثيرة . منها ـ واهمها ـ أنه يجب ان يكون اكبر منها .

في المساء ، كان سعيدا بعد ان تحدث معها طويلا وضحك كثيرا . وكانت هي تحاول اثارته بتذكيره بأنه لا زال صغيرا ولكن ذلك لكثره ما رددته ذلك النهار لم يعد يغيظه .

في مطعم الانترناشنال . كل شيء هادي ومهذب وجميل . الاكلات الروسية الغريبة هي اكثر خبره بها منه .

انواع (السوب) كثيرة . اغلبها لم يستطب طعمها عندما ذاقها . أنواع اللحم كثيرة . وهو يخشى ان يجر بها وهو (روتيني) في الاكل . اذ لا يحب تغيير عادات بطنه ، واختارت له سعاد الاكل الاقرب الى الاكلات الشرقية .

— هل أعجبك الاكل ايها الصغير ؟

— لذيذ يا عمتي ..

وضحكا . وكان احمد سعيدا لدرجة لا حد لها .

— أبدأ بطبق الحساء يا صغيري ، فهذه هي أصول المائدة عندهم .

— ولكن العكس يعجبني يا عمتي ..

— كما تشاء يا صغيري .. !

وضحكا

ـ أمسك السكين بيدك اليمنى والشوكه باليسرى .

ـ أمرك ..

ـ عافرم ، شلون ولد حباب .

وضحكا .

ابتدأت الاوركسترا بالفالس . وقام بعضهم يدور على انغام شتراوس . واعجبته الرقصه الكلاسيكيه الرشيقه التي نبتت في البلاط الامبراطوري في فينا قبل قرون ، ثم تحولت على أيـدي ابناء وبنات البروليتاريا في موسكو الى رقصه شعبيه .

ـ هل تحب الرقص يا أحمد ؟

ـ ومن لا يحب الرقص ؟ كنت احب (الجوبيه) جدا .

ـ ولكن الرقص يختلف !

ـ ولماذا ؟ كلها تعبير بالحركات عن انفعالات معينة .

ـ حقا ! ولكنها هنا انفعالات اثنين فقط ، للاثنين فقط

فهي تختلف عن الجوبية والدبكة شكلا ومضمونا .

ولم يسعه الا ان يتفق معها فلم يكن متأكدا من شيء . ونظر اليها . شعرها الاسـود ينسدل على كتفيها . شـفتاها تنفرجان

عن ابتسامة عذبة مفكرة • عيناها تغيران الوانهما وتتدفقان حنانا وعذوبة ورقة ! يا الهي •• من أين لها كل هذه الرقه ؟ ! إنها لتبدو كما لو خلقت لتغدق الحنان على كل من حولها بدون أي مقابل • أهذه هي المرأة العراقية ؟ أليس مضحكا ان لا يعرف المرأةالعراقية على حقيقتها الا على بعد آلاف الكيلومترات من العراق ؟ ! كان يعرف المرأة العراقية كأي شيء آخر مألوف ، مثل كـل الظواهر العراقية الاخرى • مثل النخيل ومثل التمر الزهدي ومثل الدبس ومثل الاشياء الاخرى التي تعود عليهـا لدرجة نسي معهـا ان يتأملها •

ـ سعاد •••

ـ ها ••• أجابت وهي تتأمل الراقصين بشرود •

ـ هل سوف تكتبين لي •

ـ طبعا ! وهل تشك فى ذلك ؟ لقد كتبت عنوانك !

وصمتا • موسيقى التانجو ترتفـع • الراقصون يدخلون أزواجا •

ـ سـعاد •••

ـ ها •••

ـ أ تعرفين ؟ .. يخيل ألي أني أعرفك منذ الازل ! .

ونظرت اليه . المطر البني يهمي عليه من عينيها . ينكمش على الكرسي كمن يريد ان يغرق .

ـ أيها الصغير الغريب ... لماذا تعذب نفسك بالتفكير الكثير

تتأمل الراقصين والراقصات . شفتاها الرقيقتان منفرجتان بعض الشيء . تبدو كما لو كانت في عالم آخر . لا تشعر بوجوده .

ـ سعاد .. سعاد ..

ـ ها ..

ـ هل سوف تزورين موسكو في وقت ما ؟

ـ وليش لا ؟ طبعا . ممكن جدا . خلال شهر أو شهرين . ممكن جدا .

الحلبة تمتلأ بالراقصين . الرقص يزداد سرعة . عيون الجالسين والراقصين ترقّ وتشرد مليئة بالاحلام . عالمه الداخلي محتقن ومتوتر ومتحفز ينوء بالهموم . يهمس كالغريق :

ـ سـعاد .. لا تسمع .

كانت تتابع الراقصين بشفتيها المنفرجتين ونظرتها الشاردة

ـ سعاد .. سعاد ..

موسيقى الجاز ترتفع سريعة .. صاخبة ..

الفصـــل الثالث

في الناحية الثانية من الممر رآهـا كانت (تانيـا) ترتدي بنطلونا يلائم جسدها الطويل المشوق. عندما رأته صرخت بمرح:

ـ أحمد . عندي لك مفاجأة سارة ..

وقف مبتسما ينتظر . واقتربت قائلة بالعربي :

ـ سلام عليكم ..

ـ مرحى أيتهـا السيبيرية !

كان يدعوها بـ (السيبريه) لانها من (نوفوسيبيرسك)

ـ مرحى يا تانيا . ماذا وراءك ؟

أجابت وهي تخبىء يدها خلف ظهرها : ـ

ـ أحزر ...

ـ وأنى لي ؟ !

وأخرجت يدها • كانت فيها رسالة :

ـ تفضل يا صاحب العزه ..

كانت منها .. من سعاد • السابعة منذ ان ودعها منذ سنة وثمانية أشهر ، لم يتلقفها بسرعة ولم يفضها بلهفه كما فعل مع الرسائل الاولى • بل طواها ووضعها في جيبه

قالت تانيا : ـ ولماذا لم تفضها .. ؟

ـ ولماذا العجلة ؟

لم يكن بينه وبين تانيا أي شيء • الشيء الوحيد الذي يجمعهما هو أنهما أبناء طابق واحد ، اذ كانت تفضل غرفته عن غرفتها بضعة غرف • ويجمعهما ايضا انهما يطبخان فى مطبخ واحد احيانا ويذهبان الى قاعة الرقص احيانا • كانت في البداية تساعده على حل تمارين اللغة الروسية • أما الان فقد بلغ مرحلة يستطيع فيها الاعتماد على نفسه •

وضحكت قائله :

ـ يبدو انها رسالة سرية ..

ـ كلا .. ثم دار دفة الحديث مشيرا الى بنطلونها :

ـ يبدو انك تتهيئين للذهاب للتزحلق ..

ـ أجل سوف تذهب مجموعة ... هل ستذهب ؟

ـ أفكر ..

فقالت وهي تغادره :ـ فكر .. فكر ! .. سوف تقطع العمر بالتفكير . ولكن الارض تبقى تدور رغم ذلك .

أمامه ثلاث ساعات حتى السابعة حيث موعده مع الرفاق . يستطيع ان يستحم ويأخذ قسطا من الراحة ثم الى الساعة السابعة بعد ذلك . اليوم خمر وغدا أمر . من قال ذلك ؟ لعله أمرو القيس، تطور العالم منذ ذلك الحين . فاليوم ليس خمرا مما تعصره البدويات من التمر المتعفن ، اليوم شمبانيا ، وغدا ؟ ماذا ؟ كلا ليس غدا ! بعد اسبوعين الدوره الامتحانيه .

دفع باب غرفته . (فيكتور) شريكه في الغرفة وصديقه يستلقي على السرير رافعا ساقيه الطويلتين النحيلتين على الحائط.

ـ جاو .. حياة بالايطالية

ـ سالوتو .. أجاب فيكتور بالاسبانيه ثم أردف .

ـ أحد ..

ـ نعم ..

ـ كنت أنتظرك ..

ـ لِمَ ؟

واعتدل فيكتور ، وعدل من وضع ساقيه ، وثبت نضارتيه المدورتين المضحكتين ، وأضاف بحماس :

ـ أنه فلم الموسم . وقد حصلت اليوم على بطاقتين في حفلة خاصة . ان لم تره اليوم فلن تراه الا بعد شهرين او ربما اكثر . وانا أعرف انك تهتم بالفن والادب ..

ـ أي فلم ؟

ـ أنه الجزء الثاني من (الارض البكر حرثناها) لشولوخوف . وفتر حماس أحمد وقال !

ـ أن شولوخوف لا يجتذبني كثيرا .

ـ ماذا قلت ؟ أعد !

ـ أن شولوخوف لا يجتذبني كثيرا .

ـ وأنا الذي كنت أظنني أفهمك ؟!

ـ لولا رواية (الرون الهادىء) لما قرأت لـه شيئا ، أنا افضل أهرنبورغ ..

ـ لانك برجوازي صغير ..

ـ وهل أهرنبوغ برجوازي صغير وخارج على سياسة الحزب والدولة ؟

ـ كلا .. ولكن السياسة الرسمية تقف بجانب شولوخوف وان كانت لا تقف ضد أهرنبورغ ..

ـ لماذا ؟

ـ أفهم يا أحمد ! ان شولوخوف يضع بيد الدولة سلاحا ماضيا . ان قصة (الارض البكر حرثناها) تقول بمئات الصفحات ما لا يمكن قوله بمئات المجلدات من الدعاية السياسية . وتقوم مقام آلاف بل وملايين الدعاة في كل أنحاء العام . اتعرف ان الجنود في الحرب الاهلية كانوا يستنسخون رواية (والفولاذ سقيناه) لاوستروفسكي ؟ أتعرف ان جنود جيش التحرير الصيني كانوا يحملون الرواية مع أغلى أمتعتهم ويقرأونها بذات التبتل الذي كان يقرأ فيه المسيحيون الانجيل في عهد الامبراطورية الرومانية .

كان منظر فيكتور وهو يتكلم غريبا • كان يطوح بيديه يمينا وشمالا ونظارته المضحكة تتراقص على أنفه وهيكله النحيل يبدو كما لو كان ركبه عملاق ••

— هل غضبت يا فيكتور ؟•••

— كلا يا أحمد • ولماذا الغضب ؟ هل يبدو عليَّ أنني غاضب ؟

— كلا • ولكني لم أعهد فيك كل هذا الحماس• لاول مرة أراك تترك برودك المعهود ••

فضحك فيكتور وثبت نظارته وقال بخجل :

— أنت على حق • ولكني أتحسس لشولوخوف لانه مواطني •

— ماذا تعني بمواطنك ؟ هل أنت من الدون ؟

— أجل ••

— أنت قوزاق •••

— أجل • وما وجه الغرابة فى ذلك ؟ ولماذا أنت هكذا دَهِش ؟

— يا للغرابة ! تَعيش معي منذ ثمانية اشهر ومع ذلك لم أفكر يوما أنك قوزاق !

— وكيف يجب ان يكون القوزاق ؟

لقد ارتبطوا بذهني بصورة معينة • باجسادهـم الضخمة ، وشواربهم الغليظة وخوذهم الفرو العالية وطباعهـم الفضة وخيولهم العربية الرشيقة • واخيرا بأخلاصهـم للقيصـر باعتبارهم حرسه الدموي الخاص •

ـ كان ذلك سابقا • ولكن أليس شولوخوف نفسه قوزاق ولا زال يعيش بين القوزاق ؟ !

ـ حقا • ولكن يستحيل عليّ أن أتصورك مثلا بالخوذة العالية والوجه الصارم !

ـ ليس المضمون وحده الذى يتبـدل ، ولكن الشـكل أيضا هكذا الاشتراكية !

وتساءل أحمد مازحا ومشيرا للنظارات :

ـ وهذه أيهما تتبع ؟

أجاب فيكتور ضاحكا وبحركة مسرحية يجيدها الروس :

ـ أنها تتبع الشكل الذى يدل على المضمون ••

وضحكا •

ـ أذن سوف لن تذهب ؟ تساءل فيكتور

ـ آسف يا فيكتور فأنا مرتبط بموعد ••

— حسنا . فلنبحث عن واحد او واحدة .

— لقد التقيت توآ بتانيا .

— من ؟ السيبيريه ؟ هذه الفتاة رائعة ! آخ كم هي رائعة القوام ، الابتسامة ، الشعر !

وبقفزه كان فيكتور خارج الباب . لم يدع الوقت لأحمد ليقول له أنها هي الاخرى على موعد !

الفصـــل الرابـــع

الساعة السابعة في موسكو ، الربيع ، موسكو في الربيـــع مدينة اخرى تماما . كأنه يراها لاول مرة . أنه الشـــباب بعـــد الشيخوخة . دفء الحياة بعد صقيع الموت ، أنه .. أنه مـــاذا ؟ يا ألهي ! انه شيء لا يوصف ! لاول مره يعرف ماذا يعني الربيع ! فهناك في قريته على الفرات كان الربيع يتبع الربيـــع ، اذ لم يكن ثمة شتاء بالمعنى الموسكوفي . أما هنا وبعـــد أشـــهر الزمهرير الرهيب ، فكل شيء يتفتح ، حتى الناس ! يا للغرابة ؟! لم يلحظ ذلك سابقا . هناك الطبيعة تغدق بدون تحفظ وتنزوي بحيـــاء . أنها اكثر تواضعا . فالناس لذلك تعتبر كما لو كانت عطاياها حقا لهم مباحاً . أما هنا ! يا للهول ! الطبيعة عاتية . تذكرك بنفسها في كل لحظة ، وتفرض نفسهـــا بكل جبروت . الجليـــد يتراكم ستة أشهر على الارض ويجمد كل ما عليها لعدة اقدام في داخلهـــا . فاذا ما أتى الربيع ، يبدو كما لو كان الهدية التي لم تكن قبلها ولا

ولا بعدها هدية • الهديـه المنتظرة المرتجـاة ، كل شيء يتفتـح بلهفه مستقبلا الربيع ، حتى قلوب الناس • بل ان قلوب النـاس تتفتح قبل كل شيء • يا للغرابة ! ان الربيع هنا ليكاد يأخذ معنى جنسياً • ان الناس هنا أقرب الى الطبيعة • او ان الطبيعة هي التي أقرب الى الناس • مهيمنه • عاتيه ! خدود الفتيات تحمر وعيونهن تلتمع • الفتيان حركاتهم تزداد نشاطا وهوسا • الجسد يشعر بأنه اكثر تحررا بعد ان القى الكيلو غرامات التي تتجاوز العشر والتي تتمثل بالمعطف الثقيل • وغطـاء الرأس الفرو والحـذاء الطويـل السميك •

حتى الاشجار تتفتح في يومين فقط ، وتأخذ شكلها النهائي في يومين فقط • يا للهفه الغريبة !! فيك شيء ما داخلي يدفعك الى البحث عن الشريك الذي يشهد معك المهرجان • شريك مـن النوع الآخر تماما !

وفي داخلك فراغ تتلهف للبحث عما يملئه ! وفي داخلـك شيء مـا ، خاص ، مورق ، يشارك الربيع في مهرجانه ، يالربيع الموسكوفي من دخيل مذهل !!

موسكو • الربيع • الساعة السـابعة ، لوجنيكي ، مطعم (بوريفيسنك) • على يمينه ستاد موسكو • أمامه التلال عبر نهر

موسكو وقد اشتعلت بالربيع او أشتعل الربيع فيها ، وازهر واخضر وأمتلئت بالحياة امتلاء ، وفي اقصى يمين اللوحة النجمه الأميه الكبيرة فوق جامعة موسكو .

كان أحمد يجلس على رأس المائدة المستطيلة وحيداً ، في الجهة اليمنى منه يجلس نبيل وصديقته (نينا) وفي اليسرى يجلس سليم وصديقته (جالينا) . كان نبيل يضع يده على بطنه ويصرخ بين الفينه والاخرى :

ـ أين الشاشليك ؟ (يعني أين التكه ؟)

فتاة المطعم تقفز برشاقه بين موائد المطعم الصغير وتقترب من المجموعة بين اللحظة والاخرى لتطمأنهم عن قرب تقديم (التكه) .

سليم يجلس بهدوئه المعهود ناقلا بصره بين نبيل الذي لا يفتأيدور ويتكلم وينهض ليجلس ثم يجلس لينهض وبين صديقته جالينا التي تبتسم بصمت .

ـ لماذا شاشليك ؟ قال سليم بالعربي

ـ طخت !!

أجاب نبيل ثم أردف

ـ منذ ساعة ونحن نتكلم عن التكه والبيرة • ومنـذ ساعة تم التصويت وأتخذ القرار •

ـ ولكن ألم نكن متفقين على الشمبانيا والدوندرمة ؟

ـ صح النوم ! سل جالينا ماذا تريد ؟
والتفت نبيل اليها سائلا ، فأجابت ضاحكة :

ـ تكه وبيره ••

ـ والان هل يتفضل السيد سليم ويحدثنا عن أحلام اليقظة ؟

ـ الاحلام ؟

ـ أجل • الاحلام ! ثم أردف بالعربي وهو ينظر بخبث الى وجه جالينـا الرائع بالعينين الزرقاوين العميقتيـن والشفتيـن الحمراويين والوجنتين المتوردتين والشعر الذهبـي كان وجهها لوحة رائعة الالوان •

ـ لعل السيد سليم كان يحلم أحلامـا ملونـة ؟ يقال ان ذوي الاحلام الملونة من أهل الخيال الخصب !

أما أنا ـ ونظر الى صديقته نينا بوجهها الاسمر وشعرها الاسمر

وعيناها السمراوان . لم يكن وجهها قبيحا ولكنه كان فقيرا بالالوان لدرجة البؤس :

ـ أن عندي عمى الالوان ! !

ونظرت اليه تينا بغضب وكأنها أدركت ما قاله بالعربي :

ـ أما كفاك ثرثره ! الجميع صامت ألاك . أنت وحدك الذى يسأل والذى يجيب . الذى يتهم والذي يحاكم !

ـ وماذا أعمل والرفاق أما أن يغطون بالنوم ويحلمون أحلاما ملونة . ثم ياظرا الى أحمد :

ـ أو يقطعون الوقت بالصلاة ! فتساءلت تينا :

ـ حقا ؟ لا أصدق !

ـ ولماذا لا تصدقين يا مدموزيل ... أنه راهب !

ـ وهل في دينكم رهبنة ؟

ـ لا رهانية فى الاسلام ، قال سليم

ـ أفهمي يا حمامتي أنه راهب من نوع آخر .. أنه راهب في معبد الفكر ..

وصرخت الفتاتان بصوت واحد :

— أووو ... وضحكوا .

— تصوري أنه لم يحب طول عمره الا الفرات والكتب .

لقد أغلق قلبه على حب الكتب ورمى المفتاح فى قلب الفرات !

— أووو . . ! ! صرخت الفتاتان بصوت واحد

— وشيء آخر . أردف نبيل ، أنه لا يحب الا نظريا فالوجود القائم بالنسبة له ليس الا أنعكاسا للعقل المطلق . فحبه النظري ليس الا أنعكاس الانعكاس تجاه العقل المطلق ..

— أووو ... صرخت الفتاتان بمرح .

— كل هذا هراء ! قال أحمد بأختصار .

— أحمد لماذا لست مع فتاه ؟ تساءلت جالينا برقه

— ألم أقل يا عزيزتي أنه يحب نظريا فقط ؟ !

تذكر أحمد الرسالة . أين الرسالة ؟ فى جيبه الايمن ؟ كلا . لعلها فى الايسر ؟ أنه يخشى ان يبحث عنها . فلا أحد يعرف بموضوع المضيفه وبموضوع المراسلات القصة برمتها غريبه نوعا . ولا يحب ان يرويها لاحد ! فهي قصته الخاصة! وحتى هو لا يكاد يفهمها حتى النهاية !

— أحمد الا تريد ان أعرفك على صديقتي ؟ أنهـا فتـاة جميلة ومرحه .

— مسكن ! أجاب نبيل نيابة عنه . ولكن يـ تحسن يا مدموزيل نينا أن تعرفينه عليها نظريا فقط فذلك هو اسلوبه المفضل . وحبذا لو تفضلت وشـرحت له موقف صـديقتك من الكـون والميتافيزيقا !!

— أيها الرفاق ! الشاشليك جاهز !
قالت فتـاة المطعم

— أووو . صرخ الجميـع بصوت واحد !

الفصـــل الخامس

أين يصطفاف ؟ على بحر البلطيق أم على البحر الاســود ؟ واذا كان على البحر الاسود .. فأين ؟ في القفقاس أم في القرم ؟ الجواب يراد منه في عمادة الطلبه الاجانب غدا .

ولو خير حقاً لما أختار الا موسكو ! ولكن هل يستطيع ان يختار ؟ ونبيل وسليم يصرخون كل لحظة ومنذ أنتهـاء الامتحـان منـذ يومين :

ـ يلله قرروا .. ! يصرخ نبيل مخاطبا سليم واحمد !

ـ يلله قرروا ! يصرخ سليم مخاطبا أحمد ونبيل .

ـ يلله قرروا ! يصرخ أحمد هو الآخر مخاطبـا الاثنين .

ولكن لا أحد يقرر !

وفي المساء دخل سليم غرفة احمد وكان هناك نبيل وقال :

ـ أنا قررت !

فسأله الأثنان :

ـ الى أين ؟

ـ الى القفقاس !

ـ يا للحزم الثوري ! علق نبيل

ـ لماذا القفقاس ؟ سأل احمد

ـ جالينا تقول ان القفقاس أفضل !

ـ أذن جالينا هي التي قررت ولست أنت ! قال نبيل ذلك وهو ينظر اليه بخبث .

ـ وما الفرق ؟ انها سوف تذهب معي .

ـ أوه ... يا للنبأ المفجع !

فقال سليم بدون ان يلتفت الى تعليق نبيل :

ـ ذلك أفضل ان نكون معا .

ـ الملاك الحارس !

قال نبيل ذلك ثم نظر الى احمد متسائلا :

ـ القفقاس ؟

ـ فليكن القفقاس ! ثم أردف :

ـ وهل سوف تذهب جالينا فى السفرة التي تنظمها الجامعة لنا ؟

ـ أجل • وتدفع الفرق • فعلق نبيل :

ـ أحسدك !

ـ لماذا ؟ فأجاب بسخرية !

ـ أنت صامد لا تتغير ولا تغير •

ـ وأنت لست كذلك طبعا !

ـ أنا دائما أشعر بالغربه والأغتراب لذلك لا بد لي من تغيير أجوائي بشكل دوري •

ـ اذا كنت تريد ان تجعل من جريانك وراء مختلف اشكال الفتيات تمزقا فلسفيا فأني لا أجد ما أجيبك عليه •

ـ ولِمَ لا ؟ أنه التمزق الخالد يا عيني ! والذي وجد قبل كل الفلسفات •

ـ أن المرأة بالنسبة لك جهاز تناسلي يمشي على قدمين •

ـ يا للتعبير البليغ ! وبالنسبة لك ؟

ـ بالنسبة لي ؟ قال سليم بتردد ثم أردف

— بالنسبة لي انها انسان .

— انسان ذو رحم أو حسب تعبيرك رحم يمشي على قدمين أو سقف تحته الخادمه ــ الطباخه ــ الرحم) والتي هي الزوجة.

وتدخل أحمد متسائلا :

— نبيل .. كيف تفهم المرأة ؟

فأجاب نبيل ضاحكا :

— كما تفهمها أنت !

— وكيف أفهمها أنا ؟

— ملاك بجناحين !

— لاول مرة أعرف ذلك عن نفسي . ولكن لم تجبني على سؤالي .

— من تتصورونني بالله عليكم ؟ أنا اكبر خوش ولد !

— ولكنك مع الفتيات لست كذلك والا لماذا تترك نينا الفتاة الطيبه وقبلها تركت فالنتينا .. ؟

— ولكنك لم تسأل (لاريسا) التي تركتني ابكي اسبوعا كاملا! لقد كنت سخيفا وعلي الآن ان اكفر عن سخفي . أفهم يابني

آدم ! أمامي خمس سنوات فقط ، استطيع ان احب بحرية وأن انفق شبابي بحريه ، وحيث أمارس حريتي (القلبية) بحرية أيضا ! وبعدها ... بعدها بغداد ... مدينة الزلم . حيث تعمل مع الزلم فقط وتمشي في الشارع مع الزلم فقط وتسكر مع الزلم فقط ... وتثرثر وتبكي وتضحك .. كله زلم في زلم ! حيث تفتقد النعومة لدرجة الغثيان ! فلنعب الآن قدر الامكان لنستطيع بعدئذ ان نقاوم وان نصبر في غابات الزلم ! وانفجروا ضاحكين !

وانطلق نبيل يسترد ذكرياته :

يالها من ذكريات مضحكة ، حبي الاول في بغداد . لقد كان يحبها معي طاقم كامـل من الاولاد المراهقين . كنا نحبها بصوره جماعية بدون ان نغار من بعضنـا . فلم يكن ثمة ما يمكن ان نغار منه ، فقد كانت لا تلتفت الينا جميعا . وكنا لذلك نتألم بصوره جماعيه ايضا . لست أدري كيف وقع ذلك ، كل الذي أدريه انني كنت في سن كان معها يجب ان أحب أنثى ... فقد أصبحت رجلا ! ووجدت نفسي غارقا في حبها حتى الاذنين بدون سبب واضح ! أذ لم تكن ذات جمال خاص . كنا نسـكن الاعظمية وكانت هي في ثانوية

للبنات قريبه • وكنت انطلق منذ الساعه السادسه والنصف لانتظرها • كانت قصيرة شعرها ذهبي مضفور في جدائل ، ساقاها مقوستان ، وكانت كأغلب فتياتنا العراقيات ، تحمل منديلا أبيضا تمسح به مره أنفها واخرى جبينها وثالثة فمها • وحالما تمر كنت أتنهد بصوت مسموع • فكانت تدير راسها الى الجانب الآخر بحركه ، كانت وقتها تسكرني ، فتندفع ضفائرها الى الجانب الآخر فتبدو كدمية بدائيـه • وبعد التنهيده اليوميه كنت أجري الى المدرسـه لئلا يفوتنـي الجرس •

كانت أمي حائرة تصرخ : ــ

ــ يمه ؟ ••• شبيك عيني ؟ ! شبيه الولـد ؟ يمه مدري شبيه الولد ؟ !

كنت لا أجيب • لا أكاد أضع اللقمة الاولى في فمي حتى أهرول لاتنهد التنهيده اليوميه • وكأنها فرض مقدس يجب أن أؤديه •

ويوما ما قررت أن أتقـدم خطوه أخرى • حالمـا مرت تنهدت كالعاده وقلت : ــ صدقه عيني •••

والتفتت الي ولم أقرأ أي شيء في عينها • ولكن خيل الي أنها راضيه أو على الاقل غير غاضبه • ومر اسبوع كنت خلاله أتنهد يومياً واكرر عبارتي :

صدقه عيني •••

وبعد الاسبوع طورت العباره فقلت بعد التنهد :

صدقه عيني لهالوجه ••• شلون وجه حلو ••• ! !

فالتفتت نحوي غاضبة وقالت :

عابت هالشكل ••

وحركت رأسها بحركه سريعه فأندفعت ضفائرها الى الجانب الآخر فبدت كدميـه بدائيه • ولـم أفهم سـبب الغضب المفاجيء ! لقد تنهدت ومدحتها وقلت أن وجههـا حلو ••• فلماذا تهينني ؟ اليست قلة تربيه بالله عليكم ؟ ولكني مـع ذلك واظبت على عادتي ••• التنهيده والعباره • وبعد يومين ابتسمت أو هكذا خيل الي واستمرت تبتسم اسبوع أو هكذا كان يخيل الي • ثم فجأة حركت رأسها الى الجانب الآخر كعادتها عندما تغضب ، ولم أفهم السبب •

وفي اليوم التالي كانت تسير مع رجل بدين يلف على راسه

(جراويه) . ما أن رأتني حتى أشارت باتجاهي . فانطلق نحوي وهو يصرخ :

ـ ولك انت ما تستحي تتعرض لبنات الناس .. وانطلقت هاربا لا الوي على شيء . وهكذا أنتهت قصة حبي الاول . وانفجرت عاصفة من الضحك .

ـ أذن القضيه قضية ثأر ! علق احمد ضاحكا .

ـ كلا مطلقا . بالنسبه لتلك هناك . كلا . فالعراقيه ممسوحة الشخصيه . أنها لم تستعمل حريتها ضدي . لقد استعملت حق زوج المستقبل في امتلاكها كامله غير منقوصه . أو استعملت حق أبيها في صون عفافها ولكنها لم تستعمل حريتها آزائي مطلقا . لذلك لم أحقد عليها . فالعراقي هناك لا يحقد على الفتاة لانها نهرته . وهل يحقد الصياد على الفريسه ؟ فالقضيه هناك قضيه شخص يجب أستغفاله وتنسيته القيود لبعض الوقت . أما هنا ... لاريسا .. آه لاريسا .. فقد أختارتني بملء حريتها وتركتني بملء حريتها ... لذلك وباستعمالها حريتها ... حطمتني !

كان نبيل يتكلم بحماس . شعره الاسود الناعم يتناثر مع هزات راسه . جسده المتين البنيان ينفعل هو ا

وينبض بالحركه • يده تمتد بحركه لا شعوريه بين الفترة والاخرى لتلامس شاربيه الاشقرين الناعمين •

قال سليم مشاكساً :

ـ ولكن القضيه مع ذلك قضيه ثأر •

ـ سمها ما تشاء • ولكن علاقة الرجل بالمرأة كانت دائما صراعا لاهوادة فيه • لابد لاحدهما ان ينهزم • ولا اريد ان اكون هذا الاحد •

فقال أحمد بسرعه :

ـ ولماذا تتصور الامر على هذا النحو • ان العلاقات بين الرجل والمرأة هي الميدان الوحيد الذي أما أن ينتصر فيه الاثنان معا او ان يهزم الاثنان معا • ثم أتتصور ان أغوائك لفتاة ثم لفظها ••• أتنصار ؟ أذن ما أتعسه من انتصار • أن كل انتصار من هذا النوع هـو هزيمة لكل القيم الانسانيه في داخلك •

أجاب نبيل ساخرا :

ـ كلمات طنانه ليست غريبه عليك !

ـ ثم اليس عندك الا الجهاز التناسلي ؟

الست مخا أيضا ؟ وقلبا ؟ وضميرا ؟ واعصابا ؟ .. الخ !
فأجاب نبيل مبتسما :

— داعيك يا أغاتي ... يستعمل أجهزته كما يستعمل الفنان أوتار العود . بتناغم وتناسق . ثم أردف وهو يهز رأسه ويضحك بخبث :

— وليس كما يستعملها البعض ... يهملون أوتارا ويستعملون أخرى فتأتي الحانهم ناشزه .
وقهقهوا . ثم قال أحمد بهدوء :

— ليس الامر كذلك قطعا ! فأنا أرى ان ممارسة الحب بدون هدف مضيعه للوقت وتحطيم للوجدان الانساني . اما أنت ... أنت يا أبو الهول تبحث عن الحب من أجل الحب فقط ... من اجل الرعشه الحسيه ...

— هل يتواضع صاحب النيافه ويحدثنا عن ... ممارسة الحب بهدف ؟

دخل فكتور كالعاصفة :

— أيها الرفاق ... أيها الرفاق .. نبأ ! !

— خير ! صرخوا بصوت واحد .

ـ مسيرة راجله خارج موسكو ، أحتفالا بتوديع الامتحانات .. فما رأيكم ؟

ـ موافقون ... اجابوا بمرح

ـ حسنا ... قال وهو يعدل نظارته بأرتباك ويدور حول نفسه كمن يبحث عن شيء .

ساله أحمد : ـ فكتور ... من سيقوم بالمسيره ؟

ـ عشرة أولاد بظمنهم أنتم

فصاح نبيل بلهفه :

ـ والنصف الآخر ...

ـ وعشرة فتيات طبعا .

قال سليم : ـ أحذف واحده ...

نظر فيكتور نحوه باستغراب وقال :

ـ لماذا ؟

فأجاب نبيل :

ـ لانـه ياعزيزي فيكتور لا يلائمـه الا نصفه الخاص الذي أسـمه ... ما أسمه ياسـليم ؟ ... آه ... جالينا ... جالينا ! !

الفصـــل السادس

منذ ان تركوا القطار الكهربائي في قريـــة (بتروفسكايا) حتى الظهر قطعوا اكثر من خمسة عشر كيلومترا . كان (فولكوف) قائد المسيرة يتقدمهم بقامتـــه المديدة وشعره الاحمر . كان يسير في غابات (التايغا) الروسية ويوجـــه المجموعة بنفس الثقة التي يوجه بها الفلاح العراقي مشحوفة في الهور . كانت غابات التايغـــا تبدو كبحر بـــلا ضفاف . لم يتصور أحمد ان الغابات يمكن ان تكون بهذا العمق وهذه السطوة . الطبيعة الروسية تبدو في ايام عرسها . تستعرض جمالهـــا بشكل لا محدود وأخاذ . الأولاد والبنات الروس يبدون مسحورين بجمال الطبيعـــة . ولكن لا أحمد ولا لبيل ولا سليم شاركوهـــم هذا الانجذاب الغريب نحو الطبيعة . كانت الفتيـــات يتخلين عن حقيبة الظهر التي يحملنهـــا ويستلقين على الارض ويعانقنها بنشوة وهكذا كان يفعل الفتيان. الارض مغطاة بالاوراق الرائعة الالوان الندية .

أشجار السرو والبتولا والصنوبر كانت تبدو ساحرة بتطاولها نحو السماء • كانت عالية رشيقة ومستقيمة ساحرة • كان الفتيان الروس يسمونها بأسمائها ويعرفون عشرات الانواع منها واذا كان احمد لم يشاركهم فرحهم بطبيعتهم وغاباتهم الروسية فانه يستطيع ان يفهمهم • فما الذي يمكن ان يحدث لو سجن في شوارع مدينة حديثة بين صفائح الفولاذ والاسفلت ، ثم أطلق سراحه بعد ذلك على طبيعة عراقية فيها نخيل وفى ظل ظليل وفيها الفرات وفيها المروج الخضراء •• ماذا كان يمكن ان يحدث ؟ ! أنه يفهمهم تماما •

أقتربت منه (أكسانا) وكانت تختلق المناسبات لمحادثته :

ـ هل تصدق ما يقال فى الغرب من ان الروسي فلاح بطبعه ••• لذلك يحب الطبيعة ؟

ـ كلا بالطبع ••

ـ ان الروسي فنان بطبعه لذلك يحب الطبيعة ! لم يجب • فهي لا تعرف الحقيقة كلها •

كان فولكوف يسير فى المقدمة بقامته الشامخة ويبدو كما لو كان فى نيته ان يستمر فى السير بدون توقف الى ما شاء الله• الرتل من خلفه يسير بشكل غير منتظم • كثيرون هدهم الاعياء

وتكأوا فى مشيتهـم • بعض الفتيـات خففن من الحمل على ظهورهن وأطفنه الى ظهور الفتيان • كادت تفرغ حقائب الجميلات منهن •

أحمد يحمل خمسة عشر كيلو غراما • أذ هو يحمل بطانية وخيمة والاكل وأشياء اخرى لـم تكن فى الحسبان ، الفتيـات حملنه هو الاخر بعض مـا فى حقائبهن • أما نبيل فقد كان فى البداية يتوسل بالفتيات ان يدعنه يحمل عنهن أحمالهن أما الان فهو يتوسل بهن كي يسترجعنهـا • سليم أختط لنفسه خطة ثابتة من البداية • فهو مع جالينا فقط • تقسيم العمـل جرى بينهمـا بأنتظام منذ البداية وبقي حتى النهاية بنفس الانتظام • حمل هو الجزء الاكبر وهي الجزء الاصغر وسارا معا يتسامران بدون ان يعرف أحد عم ؟ !

بعد فترة الغداء القصيرة أستأنفوا السير • كتلـة الشعر الحمراء على رأس (فولكوف) هدف عيون الجميع • فولكوف يسير ولا يلوي على شيء تاركا الاهتمام بالمؤخرة لـ (أيفانوف) أحد بدأ يندم على قبوله الاشتراك بهذه المسيرة اللعينـة • الى أين ؟ ما هو الهدف ؟ اذا كان الهدف الغابة فأنهم فى عمق الغابة مسافة اكثر من خمسة عشر كيلومتـرا ! واذا كان الهدف المشي

فأنهم يمشون منذ الفجر،واذا كان الهدف من هذه الرياضة اللعينة هو التريض من أجل عيون آلهة الاولمب ، أذن فما أتعسها من رياضة وما ألعنها من لحظة تلك التي وافق فيها على الاشتراك فى هذه المسيرة ! نبيل بدأ يعلن تذمره على رؤوس الاشهاد واخذ يهدد ويلوح بالعصيان !

الفتيات والفتيان الروس يبتسمون ،هم يعلقون على الدم العربي الذى يفور سريعا !

هل من نهاية لطريق هذا الفولكوف الرهيب ؟ كتلة الشعر الحمراء تلك لاتني تتقدم وتتقدم .

نظر اليه فكتور وكان يسير بجانبه وقال :

ـ أحمد .. هل أنت بحاجة للمساعدة ؟ أستطيع ان احمل عنك بعض لوازمك !

خجل ان يوافق ! ماذا سيقول هؤلاء الفتيان الروس ؟ لماذا نحن وحدنا الذين يهدهم الاعياء ؟ لن يطلب الاغاثة بأي ثمن !

ـ كلا شكرا ! ولكني لا أفهم ما هي نهاية طريق فولكوف ؟

ـ ان نهايته هي (فولوكلامسك) .

ـ أجل .. الا تعني لك شيئا ؟

ـ كلا مطلقـا !

ـ أنها الكيلومتر (٣٨) عن موسكو ..!

ـ لا أفهم ..

ـ أنها النقطة الاخيرة التي وصلتها الجيوش الهتلرية .

ـ بدأت أفهـم ..

ـ عندها أبتدأت معركة موسكو الكبرى والتي غيرت نتيجـة الحرب العالمية الثانية . وهناك تغير كل تاريخ روسيا .. وكل تاريخ الانسانية .

ـ وما (فولوكلامسك) هذه ؟

ـ أنها طريق وغابة !

ـ غابة ايضـا ؟

ضحك فيكتور وهو يرد :

ـ لماذا ... أيضا ؟ فقال أحمد :

ـ لانني أكاد أختنق من الغابة . فأنا أحب الارض الفضاء التي

تتلامس فى انحائها الارض والسماء .

ـ الصحراء .. ؟

ـ أنني أشعر بأنجذاب غريب لمثل تلك الطبيعة .. فهي تثير فيّ رعشه صوفيه مذهله .

ـ ربما .. فأنت عربي !

ـ ألا ترى انه ليس عبثا ان يولد هناك الانبياء ؟

ـ ربما .. فأنا لم أجرب ذلك .

ـ قد تثير الغابة فيك البهجة .. قد تثير حب الحيـاة ولكنهـا قطعـا لن تستطيع أثارة أفكارك . لن تثير فيـك التطلع الى الغيب .

ـ لا يهمني ذلك الغيب كثيرا . فأنا يهمني أمور حياتي اكثر من كل الاشياء . أنت يا عزيزي أحمـد لا تعرف غابات النايغـا الروسية . فالغابات الروسية لاتثير الافكار بأنغلاق أسرارها.

لقد كانت دائمـا صديق الروسي .. بل ماذا أقول ؟ بل كانت شريكه ! كانت شريكة الروسي ليس لاسرارها بل لوضوحهـا الشديد . لقد حاربت معنا فى اكبر حربين خاضتهما الروسيا .

في حرب نابليون وفي حرب هتلر . في حربنا الاخيرة كانت شريكا حقيقيا للروسي . كانت جيوشا وفيالقا من الخشب الحي . أحتظنت الدوائر المدفعية السبعة حول موسكو . وأحتظنت الانصار . وأحتظنت الجنود الروس . الجندي الالماني لا يخشى شيئا كما يخشى الغابة الروسية . فالغابة الروسية تعني الجندي الروسي وتعني ايضا ان الالماني لا يستطيع استغلال كل مواهب الحديد . كان الجنود الروس داخل الغابة يتلازمون مع الجنود الالمان بالايدي ! الجندي الالماني مقاتل رعديد بدون مواهب الحديد . أترى كل ما حولك من أشجار ؟ كان الالمان يرقمونها واحدة واحدة . ولكن ذلك لم يجد وانهارت مقاومة النازي وابتدأت هزيمتهم لاول مرة .. هنا ! .

ـ أنا معك في كل ما تقول .. ولكنك تطرق الامور من زاوية اخرى .

ـ قد يكون ..

أخيرا فولوكلامسك ، الساعة السادسة مساء . احمد يقطع اتفاسه الاعياء . لا يصدق انه وصل . أيفانوف يمسك بالاكورديون بعد ان يضع الحقيبة ، ويبدأ بالعزف . الفتيات والفتيان يتجمعون

حوله فى حلقة . البعض يرقص الرقصة الشعبية الروسية (بولكاترويكا) . احمد لا يستطيع النهوض . فى الامر بعض الاحراج ، ولاشك ، ان ترقص الفتيات ولا يستطيع هو النهوض من الاعياء ! ولكنه لا يستطيع . هذا كل ما في الامر !

ـ هيا .. احمد .. تعال !

ويبتسم بدون ان يجيب . آه يا لرجليه ! كم هو مخجل ان تخذلانه امام كل الناس . وامام الفتيات وامام الرقص ! .

كان مساء الغابة رائعا . بهدوئه الغريب . وباللهب الكبير الذى أشعلوه وجلسوا حوله . وبالعشاء اللذيذ . وبالاسترخاء . آخ الاسترخاء . الان يحس كم هو تعب . لسوف ينام كما لا أحد . المرح والصراخ والرقص حول النار لاتكاد تنتشله من كسله اللذيذ يستلقي نصف استلقاءه وكأنه لن يقوم أبدا . الجميع يرقصون ويمرحون . فولكوف كمن يركبه عملاق يضحك ويرقص ومع ذلك يلف ويدور وينظم ويرتب أماكن المنام . وكأنه أب الجميع وأمهم .

ـ أحمد .. هل لك فى كأس صغير من الفودكا .. تعيد اليك الحياة . قال فولكوف ذلك ضاحكا .

ـ كلا !

نبيل تلق • كالصياد فى أوج مواسم الصيد • يدور يتوتر بين الفتيات ويلقي شباكه هنا وهناك • يلقيها مرة واحدة فى كل الامكنة • ولكنه يبدو يائسا •

سليم وجالينا أختارا ركنا تصيا بعض الشيء • نصبا الخيمه الصغيرة وراحا يتسامران •

الضجة تهدأ شيئا فشيئا وتذوب في هدوء الغابة العميق • يرتفع صوت الاكورديون بنغمة روسية حزينة من الانغام التي كانت تعزف فى وقت الحرب •

كان أحمد يجلس بينهم وهو يشعر بسعادة نفسية غامرة على بعد الشقة بين الفرات وموسكو ، فأنه يشعر باشياء كثيرة توحده معهم • أولها انه سعيد بينهم يشعر كما لو ان بحرا من العواطف الحارة ينبجس من أعماقه ويتوحد مع المحيط الكبير للعواطف اللاهبة الطيبة لهؤلاء الشبان اللذين يغنون عن الحب والشباب والجمال والحياة •

تقدم منه فولكوف قائلا :

ـ أحمد •• أنت وحدك فى الخيمة ؟

ـ كلا •• من المفروض ان يكون معي سليم •

ـ القضية أننا لا نريد ازعاج سليم فهو مع خطيبته جالينا . ولا يبدو انه ينوي الافتراق عنها . وقد كان من الفروض ان تكون جالينا مع سفيتلانا فى تلك الخيمة . نحن الان فى مأزق !

صرخ اكثر من واحد من الفتيان :

ـ أحمد خذ مكاني .. أحمد أنا في خدمتك .. أحمد انت عربي كريم .. أحمد .. أحمد ..

وصمت فولكوف قليلا ثم قال ضاحكا وبثقة :

ـ كلا .. سفيتلانا سوف تنام فيخيمة أحمد .. فأحمد قديس .

وثارت عاصفة من الضحك والتعليقات . نبيل قائلا للعربي:

ـ دير بالك أبوي .. أرفع راسنا . الصبح أريد كشف حساب. الخيمة ضيقة . الارجل بقيت خارج الخيمة . هو يلتف ببطانية وسفيتلانا فى الظلمة تلتف ببطانيتها . الظلمـة تسود المكان ، فتبدو اشجار الغابة كظلال لاشباح عملاقة . الصمت تقطعه بين الحين والاخر تعليقات الشبان وضحكاتهم .

قالت سفيتلانا برقة :

ـ أحمد .. أنت تعب ، أليس كذلك ؟

يتخيل عينيها الرائعتين فى الظلمة . هما مع ذلك تبرقان فى الظلام . يكاد يراهما .

ـ أجل .. جدا !

ـ ولكني لست كذلك .

ـ ذلك يبدو عليك .

ـ ألم تمارس الرياضة منذ وقت قريب ؟

ـ كلا .

ـ حتى ولم تتزحلق على الجليد .

ـ حتى ولم أتزحلق على الجليد .

ـ وعندكم هناك فى العراق ... ماذا كنت تعمل فى أوقات فراغك !

ـ كنت منشغلا بالسياسة .

ـ وما لك والسياسة .. أنت طالب !

ـ واذا .. ان السياسة هي العمل الثاني لكل العراقيين !

ـ أنت سياسي أذن ؟

ـ بدرجةٍ ما ؟

ـ ولكن السياسي تعني بالروسي رجل الدولة المتفرغ !

ـ ولكنها تعني بالعراقي .. كل الشعب !

ـ يا لكم من شعب طريف .. أنا لا أهتم بالسياسة !

ـ ولكنها هناك زادنا اليومي .

ـ أنا أحب الادب والرقص والموسيقى .

ـ وأنا أحب الادب والسياسة .

ـ بيننا شيء مشترك .

ـ ها أنت ترين !

وأمتد بهم الحديث طويلا قبل ان تحكم البطانية حول جسمها وتقول له (عم مساء) وتستدير الى الجانب الاخر .

يا له من امتحان صعب ، هذا الذي يتعرض له !
لولا ذلك الاشعث ذو الشعفة الحمراء .. فولكوف ، لما تعرض لهذا الامتحان العسير ! وذلك الاخر الهائم سليم ! هل يستطيع ان يقهر هارون الرشيد في أعماقه ؟ ولكن .. أيكون حقا هارون الرشيد أم هو الرجل ؟

وفي كلتي الحالتين سوف يتعـذب . وفي كلتي الحالتين سوف لن يغفر لنفسه طويلا . وسوف يبقى طيف الذكرى الراقد في أعماقه الاعماق يعذبه !

أفاسيا لا نبدو منتظمة . في داخله تعوي كل ذئاب العالم ، فلح عليه من آخرها كمن يريد ان يذوب في الظـلام ..!

الفصـــل السابع

عندما رأى البحر الاسود لاول مرة ، فكر فى أنه قد يكون البديل المحتمل للفرات الذى يفتقده بكثير من اللهفة • البحـر الاسود من سواحل القفقاس يبدو فاتنا • مياه البحر اللازوردية تتخذ شكلا داكناً كلما أقتربت من الافق حتى تنتهي بخط أسـود عميق • السماء الزرقاء الغامقة الزرقة ، عند قبـة السماء ، تبدأ بأتخاذ شكل فاتح كلما انحدرت •• ثم تنتهي بخط ضبابي طويل مواز للخط الاسودالعميق•والشمس؟انها ليسـت لاهبة كانشمس العراقية ، ولكنها تذكرك بها• انها تشبه الشمس هناك• والنخيل؟ أجل نخيل ! حقا هو غير مثمر ولا تتدلى منه عثوق الرطب الجني• ولكنه نخيل على أي حال • له هيئة النخيل ! بل هو نخيل !

حتى لحظات الظهيرة فيهـا شيء ما عراقي • أواه كم كان يحب لحظات الظهيرة هناك على الفرات • كل الناس هناك لا تحب لحظات القيض تلك فى تموز الاه ! كان ينتظرها بشوق ولهفـة

طوال أيام السنة . يهيء نفسه لها . في تلك اللحظات كان كل شيء يبدو بهيا معجزا فريدا ! يجلس هو في القرية المسقوفة بأغصان العنب ، أو يتمدد على البساط المفروش على الارض المنداة والمبخوخة بالماء . دشداشته المفضلة من البازة الخشنة السميكة . أمامه يمتد الفرات أسمرا واسعا جليلا وقورا . الشمس تكاد تقف بشكل عمودي على الارض . تضيع الظلال أو تكاد ! طريق القرية المتربة يقفر الا من الكلاب والقطط والحمير والاطفال العراة بأجسادهم الداكنة . في لحظات الظهيرة تلك ، كل شيء يبدأ بالغليان الا الفرات وألاه !!

طيور اللقالق والكراكي تتدفع محومه حول الفرات الكبير بكثير من الحبور والنزق . الاطفال العراة يرتمون في الفرات . العجائز والصبايا ، بكامل ملابسهن ، يندفعن نحو الفرات . الفلاحون يبحثون عن أماكن بعيده ليقلعوا ملابسهم ويسبحون عراة !

في لحظات القيض تلك يصبح الفرات حياة القرية وقلبها وامنها! في تلك اللحظات يشعر أنه أمام لحظات عراقيه خالصه ، أعطت للعراق وجها حضاريا خاصا ، والغريب أنه كان يشعر براحة جسدانية ممتعه ، وكما لو كانت تلك الاشعه المحرقه تعمل على ان ينضج

جسمه ويستوي . كانت تتناثر حوله في القرية الكتب غير المقروءه وقصاصات ورق مليئه بمشاريع قصص وروايات وقصائد . وهو ذاهل كأنه يؤدي قداس خاص !

يالها من أشعه تاريخيه لاهبه أشعة شمس الفرات تلك !!

كانت الساعه تقترب من الواحده ظهرا ، واحمد يجلس في مظله تظل على البحر الاسود وتتوسد ظلال النخيل واشجار البتولا والجوز الهندي . أمامه مجله (نوفي مير) باللغه الروسيه ، ومجموعه من القواميس . منذ الصباح وهو يعالج مقاله عن هـ . ح . ويلز والفابيه . لازال أمامه الكثير لان يتعلم .

سمع صوتا خلفه . التفت . كانت ماريا أيفانوفنا ، أحدى مسؤولات السفره ومعلمة لغة روسيه في الجامعه وبرفقتها نبيل .

ـ ها أنت أخيرا ! قالت

كانت أمرأه متوسطه ، ممتلئه . ترتدي ثوبا بسيطا . وقبعه من الصوف العريض . نهض أحمد مستقبلا أياها . قالت ممازحه وهي تجلس :

ـ أفي مثل هذا الوقت تعمل ؟ ثم مدت يدها تقرأ عنوان المقال:

— آه ... وياز .. هل قرأت له ؟

— طبعا . كثيرا .

— أتعرف أنه زار موسكو وقابل لينن ؟

— كلا .

— وكتب كتابا عن روسيا أسماه (روسيا في القبر) ...

فرغم أنه من أنصار الاشتراكية الفابيه الا انه كان منحازاً ضد روسيا كان ينظر في عينيها الزرقاوين الطيبتين ووجهها الذي يكسوه النمش .

قال نبيل الذي كان صامتا الى ذلك الوقت . بالعربي ضاحكا:

— ياله من فابي خبيث ! ثم أردف بالعربيه أيضا موجها السؤال الى أحمد ومتكلفا الجديه :

— وهل كان عنصرا طيبا ؟

— لا أعرف ولكني أعرف أنه لم يكن فطير !

— لعله كان معيديا ؟

— أنت غجري !

كانت ماريا أيفانوفنا تتابع المحادثه بفضول وطلبت منهما أن

يترجما لها الحوار وحاولا ولكنهما فشلا في أيجاد مقابل لكلمتي (فطير) و (معيدي) • فضحكت ثـم أردفت طالبه منهم تهيئة بعض الاغاني أو الرقصات الوطنية لحفلة بعد الغد وأنصرفت •

كان نبيل بلباس البحر • جسده الاسمر الممتلئ بدا يسمر • وكان يطيب لـه أن يقضي الفترة الصباحية حتى الظهر على هذه الصوره • فمعسكرهم يطل على البحر وهو ينزع في غرفته وينزل الى الشاطيء •

ـ أحمد آل محمد •• !! قال نبيل بصوت خطير •

ـ نعم •

ـ أتعرف ؟

ـ ماذا ؟

ـ لقد سألوني عنك ••

ـ من ؟

ـ ••••

ـ ليش ساكت ؟

ـ ماذا أقول ؟

ـ أسأل .. من ؟

ـ ذلك يهمهم اكثر ...

ـ ولك أنت راح تشلع أفادي بجمودك ..
اصحى يابني آدم !

ـ ....

ـ أسأل من ؟ .. أسأل ؟

ـ من .. ؟

ـ ليديا ... آخ يابه ... ليديا !!

ـ أن هذا الاسم لا يعني لي شيئا .

ـ ولك أبويه ... ليديا ... درة الجامعة ... اهنئك !
وشد يد أحمد بحماس .

ـ علام .. ؟

ـ أنت أول من يخرق القاعدة الخالدة .

ـ أي قاعدة ؟

ـ القاعده التي قالتها العرب ... تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ... وها أنت ولاول مره في تاريخ هذه الحكمه ... تعكسها ..

ـ كيف ؟ وجد أحمد نفسه يسأل

ـ تجلها ... ترى المعيدي خير من أن تسمع به .. والا فلو كانت سمعت بتاريخك السيىء الصيت لما كلفت نفسها بالسؤال .

تجاهل أحمد كلام نبيل وسأل :

ـ ولكني لا أعرفها ؟

ـ كيف لا تعرفها ؟ ... أذن ماذا تعرف اذا كنت لا تعرف ليديا ؟ ماذا تعرف ؟

أتدري ماذا قالت ؟ قالت لي من هذا الفتى المليح ذو الملامح العربية الاصيلة والعينين الحالمتين ... أتدري بماذا أجبتها؟

أثار فضول أحمد فسأله ببعض اللهفه :

ـ بماذا ؟

ـ قلت لها أنه ولي من أولياء الله الصالحين وشيخ طريقه معروفه من طرق الدراويش . وله كثير من الاتباع الدراويش

في كل انحاء المعموره . وأســمه بالكامل أحمد آل محمد الفراتي ... الا تعجبك الفراتي هذه ؟

ـ تشوه سمعتي يا أبن الـ ... أوادم !

ـ يارب ! تحرك جبل الجليد أخيرا ! تصور يا سيد الفراتي ، أسمها وحده يكفي لان يهز رواسي الجبال كما هز حضرتكم الجبليه . أما لو رأيتها .. وفي المايوه على وجه الخصوص .. فليرحمك الله مقدما ، أما لو كلمتها ... سلني ماذا لو كلمتها ... وماذا لو .. وماذا لو ... آخ بويه افادي !!

في تلك اللحظة كان سليم يجري نحوهم ويلوح برساله .

ـ أحمد هذه الرساله لك من باريس ..

وخفق قلب أحمد . تلقف الرساله . أنها منها . من سعاد . ووضعها في جيبه .

ظر اليه الاثنان في استغراب :

ـ لماذا لم تفضها ؟ تساءل سليم

ـ من هو المرسل ؟

ـ لا ... فد واحد ...

ـ من ؟ سأل نبيل بأصرار

ـ صديق !

ـ لم أعرف أن لك صديقا في باريس !

ـ ... !

ـ قبلها كانت رسالتان . واحده من روما واخرى من مدريد ..

ـ ... ! نظر أحمد في عرض البحر بدون أن يتكلم

ـ أحمد ... ما الحكايه ؟ أصر نبيل .

ـ ... ! أحمد ينظر في عرض البحر

ـ أتدري أنك كتوم لدرجه مرعبه ؟
لم يدري أحمد بماذا يجيب .

ـ ما هذه الاسرار التي تحيط نفسك بها ؟ ما حكاية هذه الرسائل ؟ أنك تدعي أننا أصدقاء ، ومع ذلك لا نبوح لنا بأبسط أمورك ! ليست أسرارك من أسرار الدوله العليا على أية حال . فلست اكثر من أنسان عادي . ولكنك تخفي امورك بشكل يخيفنا نحن أصدقائك . مثل قضية فتاة الغابه في المسيره . لماذا كنت تتضايق عندما نسالك عنها ؟

والرسائل التى ترسل لماذا نسكت عليها ؟

واحس احمد انه يختنق وانبيل كمن يضغط على عنقه

-نبيل ...رجاء يكفي لا احب سماع هذا الحديث مرة اخرى

قام نبيل بغضب وغادر المظله وتبعه سليم

تابعهما احمد بنظره ثم التفت الى ناحية البحر

كانت مجموعات كبيرة من طيور النورس تتجه نحو الساحل ...ثم تنعطف نحو عرض البحر

حائمة فوق الامواج

الفصل الثامن

بعد الوصلات الغنائية والفكاهية فى الحفلة التي جرت على المسرح المكشوف ، تدفق الجميع على ساحة الرقص المكشوفة ايضا . كانت القاعة مربعة الشكل . أحد جوانبها يطل على البحر الذى كان يزبد ويدوي فى الظلام الدامس . فى الجهة المحاذية للبحر جلس اعضاء الاوركسترا الموسيقية يجربون أجهزتهم . جمهور الفتيان والفتيات تحلق حول القاعة مشكلا مربعا هو الاخر . الضوء في الساحة معتم ألا من بضعة مصابيح كهربائية قرب الفرقة الموسيقية .

كان أحمد يقف بجوار سليم وجالينا ، فى الجهة المقابلة للبحر . نبيل أختفى بدون ان يفتقدوه ، فقد كان ذلك معروفا عنه . ضحكات الفتيات والفتيان ترتفع سعيدة رائقة خلية . ان شيطان الرقص يركبهم بصورة واضحة . حتى أحمد يشعر بذلك أحيانا ، عندما يقف هذه الوقفة أمام ساحة الرقص ، وترتفع

الموسيقى ، وتلتمع عيون الفتيـان بفورة خاصة معروفة ، وعيون الفتيات تشرق بشوق عارم .. أجسادهن تبـدأ تعزف الالحـان الموسيقية بكثيـر من المشاركة . حتى أحمد كانت تسري اليه العدوى .. ويحس ان شيطان الرقص بدأ يتجسد فى أهابه هو الاخر . وكان ذلك .. فى البداية ، يثير عنده ذكرى أيام مراهقته الاولى فى تلك المدينة البعيدة على الفرات . والتي أكمل فيهـا دراسته الثانوية. وكان يشعر بحسد لهؤلاء الفتيان الذين يجتازون مراهقتهم بدون عقد . أواه يا لهـا من مراهقة قاسـية وأليمـة ، مراهقته ، هناك على الفرات !

كانت الفتيات بالنسبة لهم حيوانات جميلة غريبـة اسطورية تختفي فى عبائـات سوداء . وكـا لو كن يعشن فى كون خاص يستحيل الوصـول اليه . كن يعبرن سراعا بعباءاتهن السـوداء كأحلام مستحيلة . وعندمـا كانوا .. هو اصدقائـه ، يغامرون وينتظروهن ، عند خروجهن من المدرسة ، كن يمشين ويتهامسن كمجموعة من القطط الوحشية الجميلـة . نظراتهن غير قابلـة للتفسير . أصواتهـن همس خافت كتسبيح الملائكـة . وكانوا يحبون بعضهن بصمت ، ويحملون حبهم الرهيب بصمت ويتألمون بصمت ، ثم .. يموت الحب العظيم بصمت ايضا ، وبدون سبب

واضح . كم كانوا يتألمون ويعانون ويتمزقون !

ان تمرق عباءة سوداء ناعمه في الشـارع ، كان ذلك فجر سماوي برمته . أذ سـرعان ما يضطرب التنفس ، وتفقد الارجل مواقعها . وتتيه النظرات ، آه ... يا لها من مراهقة متعبه !

وهؤلاء الفتيان ... هل يسـتطيع الا أن يحسـدهم ؟ ! أنهم يعيشون عواطفهم بوضوح ، ويجتازون مراهقتهم بوضوح ، ويفهمون أنفسهم بوضوح، وتتحول المراهقة عندهم من فترة صيروره اليمه وفترة انفجار عاطفي رهيب يذهل الطفل الذي في طريقه الى ان يغدو رجلا ... من ذلك ، هناك على الفرات ، الى أطلالة سماوية بهيجة، يكتشف فيها الطفل نفسه من جديد ، ويحس أنه خلق من جديد ، وأنه اكبر واعظم مما كان يتصور بكثير .

— أحمد ... أحمد ! أيقظته جالينا من أفكاره .

— نعم .

— تحلم ؟

— بل أفكر ...

— أتقبل دعوتي الى الرقص ؟

ـ وهل أجرؤ على الرفض ؟ ثم أردف ضاحكا وهـو ينظر الى سليم :

ـ ولكني لا أستطيع بدون موافقة سليم ، فمن يدري كم بقي من الحمية الشرقية ؟ ! ربمـا لا زالت كاملـه .. فتكون النتيجة وبالا على كلينا .

فقال سليم ضاحكا :

ـ لا تخف !

ـ لم يبق منها شيء أذن ؟

ـ أذهب وارقص بدون فلسفة .

بعد أنتهاء الرقصة ، شق أحمد وجالينا الطريق بأتجاه سليم . كان الى جواره نبيل الذي بادر أحمد :

ـ أحمد ... يلله بسرعة

ـ ماذا هناك ؟

ـ ليديا ... وصديقتها .

ـ من .. ليديا ؟

ـ كيف ... من ليديا ؟ ... وهل نسيتم حضرتكم حديثي بهذه السرعة ؟

ـ آه ... ليديا ، تذكرت ... ثم ماذا ؟

ـ يالك من بطيء ... هيا بسرعة . لا تكن غشيما . أنها تنتظرنا . لم يدع له مجالا للمزيد من الاسئله . بل مضى أمامه ومضى أحمد في أثره .

كانت تقف مع صديقتها بجوار شجرة بلوط ضخمة على بعد أمتار من حافة ساحة الرقص . كان الضوء هناك ضعيفا بعض الشيء . قدمهم نبيل لبعضهم . عندما رأى صديقتها ، أدرك لماذا كل هذا الحماس من جانب نبيل . كانت شقراء رائعة . كان ثوبها الازرق يلتف حول جسدها بأناقة . ويرتفع قليلا عن ركبتيها . أما ليديا .. فقد ذهل عندما رآها . كان وجهها عربيا لدرجة نادرة ، كان شعرها أسودا طويلا يصل الى كتفيها ووجهها كان طفوليا فيه سمات عربيه لا تخطئها العين . ومع أن لون عينيها كان أخضرا أو أزرقا ، فهو لم يتبينه جيدا في العتمة . فأن بريقهما مألوف جدا . فراتي جدا . كانت عينيها اللتين تطلان من غابة الشعر الذي ينسدل على جانبي وجهها ، كعباءة حريرية ، تذكرانه بالعيون الفراتية التي تطل عليه تحت العباءات الحريرية السوداء .

مليئة بالغموض والالغاز

ووجد نفسه يسأل :

ـ أنت عربية يامدموزيل ؟

ـ كلا .. للاسف !

ـ أذربيجانية ؟

ـ ضحكت وأجابت :

ـ كلا .. أيضا !

ـ أذن لابد أن أحد أجدادك كان عربيا .

ـ جدتي لأمي تركية من أستانبول .

ـ آه ... فهمت السر .. !

ـ السر .. في ماذا ؟

ـ السر في الشعر الاسود الطويل .. وفي العينين الشرقيتين الساحرتين .

ضحكت . بدت اسنانها جميلة ناصعة . وظهرت غمازتان في خديها .

- وفي الاسنان اللامعة...وفي الغمازتين

اردف بما يشبه الوله

-انت تجيد الثناء ...أأنت شاعر؟

-في لحظات خاصة جداً

- مثل هذه مثلاً

- مثلاً...!

الفصل التاسع

عندما أنظم اليهما فيتالي وسيرجي تضايق نبيل ، واعلن عن تضايقه اكثر من مره وبصوت مسموع أحيانا . أذ كان قد وصل الى مرحلة متقدمة مع زميلته الشقراء . وكان واضحا أنه يعد العده للأجهاز الاخير على بقايا المقاومة .

كانوا قد أبتعدوا عن ساحة الرقص ، وجلسوا في ركن هادىء ، نصف مظلم . نبيل يتجه بكليته لصاحبته الشقراء معطيا ظهره لأحمد وليديا . يعالج الامر معها بكثير من الانفعال والحماس والعجله . ضحكاتها كانت ترتفع بين الفينة والاخرى ناعمة راضية ومنشرحة . وهو يترثر بدون توقف . وعندما أنظم اليهما فيتالي وسيرجي أنهارت كل الخطط .

كان فيتالي طويلا نحيفا ، ملامحه حادة وشعره أسود مهوش . وكان يحضر مثل هذه الحفلات لا ليرقص ولا ليمرح بل ليقف ويستعرض الواقفين ويستعرض آراءه بذات الوقت . فقد

كان يحمل آراءه ويجربها مع الجميع بنفس الطريقة التي يحمل بها الجيولوجي عدة العمل مستعرضا الاحجار .

أما سيرجي فقد كـان قصيرا . وجنتاه مغوليتان عريضتان شعره ملقى بخصلات شقراء مهمله . رث الهندام . كانت الحفلات بالنسبة له نشاطا أجتماعيا لا اكثر . كان ينظر من وجهة نظر كونه عضو نشط في الكومسومول .

وأذا كان فيتالي وسيرجي متناقضين في كل شيء كما يبدو فأنه يجمعهما أنه لم يعرف لهما (نشاطات) نسائية . كانت المرأه بالنسبة لكليهما مخلوقا عاديا خال من الرومانتيكية . فهي بالنسبة لفيتالي عنصر فلسفي محض يعطي بأختلاطه مـع الرجال ، لآرائه الفلسفية طابعا حادا مشوقا .

وهي بالنسبة لسيرجي عنصر تنظيمي محض ، يسـاهم في الحفلات بصورة اكثر فاعلية من الرجـال ، ويتحمس للحفلات وينجحها . فهي تزيد من النشـاط الاجتماعي للكومسومول . وهذا ما يهمه منها .

تضايق نبيل وخاطب أحمد بالعربية :

ـ ألم تجد غير هؤلاء ... وفي مثل هذا الوقت ؟

ولم يعجبه أحمد . ففي الحق كان يعجب بذكاء سيرجي وحيويته مع أن سيرجي يعتبره هو الآخر شيئا تنظيميا محضا ، فبأعتباره أجنبي يمكن أن يكون مجرد حضوره شيئا مفيدا في النشاطات السياسية والاجتماعية والترفيهية . ولم يكن ذلك يضايق أحمد . فهو يريد أن يعرف هؤلاء الناس .

أما فيتالي فقد كان ينظر الى أحمد على أنه محك من نوع جديد ، أجنبي ، لأفكاره وآرائه . أما كل الآخرين فهم أنواع مألوفه من العناصر يستطيع أن يحزر مقدما الصدى الذي تحدثه آرائه لديهم .

ومع أن سيرجي وفيتالي ليسا أصدقاء بالمعنى المفهوم ، فقد كان يجمعهما أن أحمد يشكل هواية مشتركة لديهما . فهما يجلسان معه ويستعرضان آرائهما ، فضلا عن أنهما في فترات الحفلات لا يكونان مع فتيات كباقي الفتيان ، واغلب الفتيان يزورون عنهما بحثا عن الفتيات ، فلا يجدان بدا من ملازمة أحدهما للآخر ... وهذا يعني في أغلب الاحيان ، البحث عن أحمد ومشاركته الجلسة.

وكان نبيل يصدهما غالبا في كثير من الضيق ، وكان ذلك يزيد من تعلقهما به بأعتباره عنصر خاص ويستحق المعاينة ، كل

من وجهة نظره الخاصة .

حشرا جسديهما في الفسحه الضيقة بين أحمد ونبيل . كان نبيل يتابع نقاشهم بضيق وبدون أن يشعر بأدنى رغبه في المشاركة . أحمد يعجبه جدا أن يسمع نقاش بين أثنين من الروس. فالروسي يملك قدرة فائقة على التعبير عن افكاره . وهو يناقش بهدوء وذكاء . ليديا وصديقتها جلستا تستمعان بلا مبالاة وكان الامر لا يهمهما من بعيد أو قريب .

ـ متى يبدأ العرض ؟ سأل أحمد

ـ في السابعة . أجاب سيرجي

ـ هل سوف نستطيع الوصول في الوقت المحدد ؟

ـ ببعض التبكير تستطيعون الوصول ... لم لا ؟ !

ـ ولكن ما أسم العرض ؟ سأل نبيل .

ـ (قصة رجل حقيقي) لبوليفوي ! أجاب سيرجي

ـ قد لا تستحق المشاهدة ؟ ! قال نبيل مشاكسا .

ـ ماذا تقول أيها الصديق .. أنها أروع ما كتب خلال الحرب. أنها قصة الارادة الانسانية الخيرة التي تقهر المستحيل !

— لم أسمع عنها شيئا ! قال نبيل معاندا .

— أذا كنت لم تسمع بها في بلدك فكل أنسان سوفيتي هنا يعرفها .

كان سيرجي يتكلم بحماس . وكان عندما يتكلم في المواضيع السياسية او الادبية التي لها علاقة بالسياسة يتكلم وكانه يؤدي صلاة مقدسة .

علق فيتالي بتكلف رسمي :

— أيها الرفيق سيرجي ميخائيلوف ... أسمح لي أن أقول انه اذا كان الناس لا يهتمون بها هناك ، فأني أعتقد ، أنها حتى هنا لا تستحق كل هذا الاهتمام .. لولا الدعاية .

— ماذا تقول يا روزوف .. أنت تهرف بما لا تعرف .

— أنها لا تعدو أن تكون ريبورتاجا صحفيا ولا اكثر . وهي من وجهة النظر الفنية الروائية ، لا تستحق حتى علامة واحدة من خمس . فأين هو العمق الروائي في قصة عن شخص يفقد رجليه ثم يتعلم الرقص على عكازين . أنها حقا قصة غريبة عن رجل حديدي ، ولكن .. لا اكثر ! أين هي

اللمحات التشيخوفية العبقرية ؟ .. أين هو التحليل التولستوي المذهل ؟ بل أين التركيب الروائي الفني ؟

— الى الشيطان أنت وتركيبك الروائي . أنت تتكلم كأي برجوازي تعس ، وما تقوله هراء في هراء .

— وهل تولستوي ودستوفسكي وتوجينيف وتشيخوف ... هراء ؟

— لو بعثو من جديد وبأسلوبهم القديم .. نعم . ولكن في وقتهم كلا بالطبع .

— أيها الرفيق ميخائيلوف .. الفن هو الفن .. الآن وقبل قرن من الزمان ، والابداع الانساني هو الابداع الانساني .. الآن وقبل قرن من الزمان ، وقضية الانسان .. والانسان هو هو الآن وقبل أي عدد من السنين . فاذا كان الانسان يحتاج الى الابداع الفني قبل قرن من الزمان ... فهو الآن يحتاجه بما لا يقاس في عصر يزداد فيه حكم الآله وتنسحق حرية الاختيار ، فبالفن ... وبالفن وحده يمكن أن ينعتق الانسان .

— أنا معك في حاجة الانسان الى الابداع الفني ، ولكن اليس

مادة الفن ... الانسان ؛ أن هذا الانسان هو قضية الحركة الثورية الكبرى .. وهـو هـدف الحركة الثورية الاكبر والحركة الثورية تسعى من أجل جعله أسعد واكثر شعبا ..

— وهل يخدم أدبنا حقا قضية الانسان ؟ ما هو أدبنـا اليوم ؟ الشكل الفني والروائي والموسيقي يتكرر عند كل الفنانين ولكن بأسماء اخرى . فالرواية مثـلا .. عند كل الكتاب شخصية أيجابية عظيمة ، تعرف الحقيقة وكأنها ولدت يوم مولدها ، وهي تتحرك بخط ثابت قويم لا أعوجاج فيه ولا متاهات . كل شيء واضح . كل شيء مفهوم . وليس على الشخصية الايجابية المعجزه الا أن تفتح أعين بضعة أغبياء لم يروا الحقيقة بعد . فاذا مـا تمت المعجزة وتفتحت أعين الاغبياء على الحقيقة .. أنتهى دور البطل الايجابي العظيم . وهذه هي خاتمة الرواية . فهل هكذا الامر في الحياة حقا ؟ هل الامور بمثل هذا الوضوح ؟ أين الديالكتيكيه الهيغليه؟ بل حتى أين الديالكتيكيه الماركسيه ؟ أين ؟ أهكـذا نفهم الديالكتيكيه ونطبقها في الحياة ؟

— أيها الرفيـق فيتالـي روزوف .. أنت تفهم الفن بصوره ميتافيزيقية غريبة ، وكأنه شيء قائم بذاته .. وكأنه منفصل

عن الانسان . أن قضية الفن هي نفسها قضية الانسان أو بالاحرى ، ليس هناك قضايا .. هناك قضية واحدة ، الا وهي قضية الانسان . وكل ما عدا ذلك لغو فارغ ولا يستحق المناقشه .

— أيها الرجل الملتوي ... أنت لا ترى من الالوان .. الا لونا واحدا . ولا من الوجوه الا وجهـا واحدا ، ولا من كـل حقائق العالم الا حقيقة واحده .. الحقيقة المطبوعة هنا .

قال فيتالي ذلك وهو يضع يده على رأس سيرجي .

فأجاب سيرجي ضاحكا :

— أبعد يدك اللعينة أيها الرأس السوداء ..

قال فيتالي ضاحكا :

— أن رأسك ياسيرجي ميخائيلوف مصفاة كقنينة فودكـا ... نقيه كقنينة فودكا .

— ورأسك أنت عريده كقنينة فودكا .. وقابلة لتخدير أعمق الخلايا المخيه كاتعس قنينة فودكا .

— الا تستحق العقاب هذه القنينة اللعينه ؟

— تستحق ... ! قال سيرجي بمرح

ـ وأين نجدها ؟

ـ هناك في الكشك الخشبي وراء ساحة الرقص . تباع ببضعة روبلات فقط .

ـ وسنجدها أنقى ما تكون ..

ـ واخبث ما تكون ...

وانطلق فيتالي روزوف وسيرجي ميخائيلوف وراء قنينة الفودكا بعد أن حيبا الجالسين .

لوى نبيل شفتيه بأحتقار وقال :

ـ يا له من نقاش بارد ... ويا لها من نهاية كئيبه !

ـ وكيف يجب أن تكون نهايه مثل هذا النقاش ؟

ـ ... بالسكاكين ... أو على الاقل بقبضات الايدي .. مثلما يجري عندنا ..

ـ أنهما يعرفان حدودهما ...

ـ أو قل لا يعرفان حدود أيمانهما . أنا واثق أنهما لو كانا حقا يؤمنان بما يقولان حتى النهايه ، لما أنتهى نقاشهما الا كما ينتهي عندنا .

— ولكن هل ذاك هو الاسلوب الصحيح ؟

— ليس المهم الصحيح يا عمي .. المهم ما نعتقد أنه صحيح وكيف نعتقد ذلك ! وعلى كل فكلنا هنا في الهوا سوا .

ثم أردف مخاطبا صديقته :

— اليس كذلك يا مهرتي الرائعه ؟

وحاول أن يقبلها ولكنها صدته بيدها وهي تبتسم وتقول :

— لا أفهم ...

— أنا الذي لا يفهم يا مهرتي البخيله .. أنا الذي لا يفهم .. !

الفصـــل العاشـــر

فوق تنوء صخري بارز كانت مقهى (موريه) • كان التنوء الصخري يتمطى فوق جرف البحر الاســود كما لو كان جناحــا ضخما أو طيرا خرافيا متهيأ للتحليق •

جلس أحمد وليديا في الجانب المطل على البحر • جانباهما الى عرض البحر • متقابلان تفصل بينهما المنضده الخشبيه الانيقه• ظلمة المساء تنبسط بهــدوء وبطء على البحر وعلى المقهى وعلى الغابه المجاوره • الشــبان والشــابات بدأوا يتوافدون بشكل لا ينقطع • مكان ساحة الرقص مازال فارغا ، وفرقة الجاز ما زالت غير موجوده •

فرغت كأســه الاولى وما زالت كأس ليديا نصف ممتلئه • الاضواء تنعكس على قنينة الشمبانيا التي أمامهما وعلى الشمبانيا التي في الكؤوس •• فتبدوان لعينيه اللتين غزتهما الخمره ••• كون كامل من المرايا والاضواء •

ليديا بدأت تفهمه كما يبدو ، على قصر المدى بينهما ، فقد تركته لأفكاره واكتفت بتقليب نظرها بين البحر والرواد والشمبانيا .

هذه السعاده الهادئه العميقه التي يشعر بها ، ما هو مصدرها؟ أهي كأس الشمبانيا ؟ أم الليل والبحر والغابه ؟ أم هذه الفتاة ذات العينين الفيروزيتين الحالمتين والشعر العجري الاسود ؟ أنه ليشعر بسعاده ضخمه وعميقه لم يشعر بها في أي وقت .

سعاده هادئه كبيره .. وهو يشعر كما لو كان ينزلق وينزلق بهدوء ناعم رقراق على بساط أزلي النعومه والخدر !

لم لم يشعر بمثل هذه السعاده ، هناك على أرض الفرات ؟ تلك الارض التي عبدها ، لم يملك عليها السعاده يوما ؟ ماذا يقول؟ كان يشعر أحيانا بالسعاده .. ولكنها كانت سريعة خاطفه أشبه ما تكون بلحظات التجلي ... وليست كهذه السعاده العميقه الواسعه، والتي ينزلق عليها كما لو كان ينزلق على بساط أزلي النعومه !

تلك الارض .. كم يحبهـا تلك الارض ، حبا عنيدا صوفيا لا أرضيا . وذلك النهر وأولئك الناس هناك ! تلك الارض التي لم تكن سعيده يوما ، ولم يكن هو سعيدا عليها يوما ، تلك الارض التي تتفجر منها الاحزان كما تتفجر البراكين في أرض اليابان وكما

تتفجر ينابيع المياه في الجبال ... وكما يتفجر الملح هناك ... في تلك الارض ! وكما يتفجر النخيل !

تلك الارض الحبلى بالنكبات والنخيل والملح وكل ما لا يصدق من الاحداث والآلام !

وفي طفولته غير السعيده ، كانت صور المعارك بين العشائر في قريته ، تقض مضجعه في المنام . الخناجر التي تلتمع والفؤوس والبنادق والأعمده والدماء التي تسيل والعباءات النسائيه السوداء التي تشترك في المعارك الكبيره وصراخ النسوه والاطفال والكلاب . وهو يقف طفلا فرقا مرتعداً وقد أذهلته العواطف الرهيبه المتفجره والحقد العنيف الموجع .

والأحزان الرهيبه ، الفراتيه جدا ، واللاأنسانيه ، والتي تتفجر في دموع النساء وفي أصواتهن . أحزان غريبه وكبيره .. اكبر من الناس أنفسهم . والأحزان التي ترافق المعارك الكبيره في قريته أو ترافق تعازي الحسين أو حتى ترافق الموت العادي .. الطبيعي ! حتى الموت يأخذ هناك شكلا لا أنسانيا لا أرضيا !

عندما زار مرة بيت أحد أصدقائه الروس ورآهم يبكون موت جدتهم ، أستغرب من الطريقه الهادئه الباردة التي يقابلون

بها الموت • كانت الأم تبكي بدون صوت وتمسح دموعها بهدوء ، وكان الحفيد ينظر في قاع الغرفه بحزن والرجل كان يدخن • وكان كل شيء يجري في العماره بهدوء وكأن شيئا لم يحدث • الاطفال يلعبون في الحديقه أمام باب العماره ، والعجائز يثرثرن والمراهقون يتغازلون • ثم أتت سياره سوداء كبيره مغلقه من جميع الجهات ، فيها رجال غرباء ، أخذوا المتوفاة واغلقوا الأبواب وذهبوا بدون أن يرافقهم أحد !

أين منه ذلك الحزن المرعب الذي على الفرات ! في طفولته كان يستيقظ بفزع على الصرخات النسائيه الحاده والتي تمزق سكون الليل في القريه • والغريب أنه كاد يتحول عنده الى يقين بأن كل الناس لا يموتون الا في الليل • ولا تنام القريه حتى الصباح • وتسير في الصباح موكبة الميت بالصراخ والتراب الذي تعفره النساء على وجوههن وجباههن •• الرجال يسيرون بهدوء• الاطفال يراقبون الجميع بكثير من الهدوء والتعقل والخوف • الكلاب تضع رؤوسها في الارض وتنزوي بدون نباح •

وفي الاوقات التي ذهب فيها الى النجف ، كان يتعلق بعباءة أمه بخوف عندما تنفجر الاحزان في النساء وتفيض من عيونهن ومن أفواههن • كن يقطعن الطريق الترابي بين الكوفه والنجف

على هيئة قوافل تقذف الاحزان وتبث الرعب في قلبه الصغير . أقدامهن الكبيره المشققة السوداء تطأ الرمضاء اللاهبه بلا مبالاة ، عباءاتهن الصوفيه السميكه تنسحب ورائهن وتثير الغبار . أيديهن السوداء العجفاء الملأى بالمحابس الفضيه بشذرها الازرق وفصوصها السوداء ، تتحرك حركة خاصه رتيبه . وجوههن التي غطتها العصائب الى ما فوق الحواجب كانت أشبه بالعجين الاسود الذي نحت بدون عنايه وخطط فوقه الوشم الأخضر بعجله .

وكانت حصباء طريق النجف الحمراء تبعث في نفسه شعورا خاصا . والقبه الذهبيه الكبيره ، التي ترتفع نحو السماء الزرقاء تحرك في أعماقه شعورا غامضا وغريبا .

منذ عام قتل عمه في ظروف غامضه ، ورأى من جديد كيف ينبجس الحزن العراقي الرهيب ، وكيف ينحت نفسه ! ولكن هذه المره رآه عن كثب وعند أقرب الناس اليه . أما هو فقد تحجرت أعماقه ولم يشعر بأي شيء . رأى الحزن كيف ينمو وكيف يتحول الى وحش كاسر . ورأى كيف يتحول الانسان العراقي الى شعله جامحه من الغضب الاسود المتمرد . ولم يسعه أن يحلل لماذا ؟ وهل السبب تاريخي أم فيزيولوجي ؟

ذهب الى النجف مره أخرى مودعا جدث عمه ، وقطع نفس

الطريق مره أخرى التي بين الكوفة والنجف ، الطريق التي قطعتها كل أحزان العراق ، وعبرتها كل مواكب التاريخ في العراق منذ سفينة نوح حتى خلافة علي • وجالد النجيع الاحمر على الطريق ، واحسه في خياشيمه وفي عينيه وفي رئتيه وفي شعره وفي كل ذره من جسده • ورأى العباءات السوداء والغضب الاسود الجامح الذي لا ينطفيء ، والحزن المدمدم العظيم ، والعيون التي تتدفق بالالام والثأر والفجيعه ، وتبكي دم النبوة المباح والحسين المظلوم وتطالب بالثأر من (يزيد) الذي مات قبل مئات الاجيال ، وترى في كل خصم (يزيد) جديد !

القى الطرف الى الوادي الكبير الذي تنمو فيه القبور كما تنمو الطحالب في البريه • هنا سوف ينام عمه ، وهنا ينام أجداده منذ عشرات الاجيال • يا له من مركز جذب رهيب !

فليذهب أيان شاء وليسرح في مناكبها ، وليقطع من الشوارع أفسحها واجملها ، فهذا هو في كل الاحوال شارعه الاخير وطريقه الاخير الذي سوف يقطعه في رحلته الى العالم الغامض الغريب الواقع في الجهة الاخرى من الوجود ••• او اللاوجود !

نظر الى غابة المقابر في الوادي الكبير • ربما لم يكرهها ••

ولكنه لم يشعر نحوها بأي شعور من الحب • لن يتمنى ان يكون هذا الشارع هو الاخير الذي يقطعه في طريقـه الى اللاوجود • ليكن طريقا أخيرا أي مكان في الارض أو في غير الارض ، ولكن ليس هذا الطريق بأي حال ولا هذا المكان بأي حال •• هذا الذي أرتبط باشع الصور في طفولته وبآبعثها على الرعب !

كرع الكأس الثالث ، أو ربما الرابع وتطلـع الى ليديا التي كانت تجلس بهدوء ، محترمة صمته •

المقهى ممتلىء بالفتيان والفتيات • قهقهاتهـم الخلية ترتفع بين الفينة والاخرى من جميع الجوانب • سألته ليديا بعطف :

ـ أنت ساهم النظرات •• هل أنت حزين ؟

ـ بالعكس أنا سعيد جدا ، ولكن ذكرياتي هي الحزينة !

ـ من يراكم لا يصدق انكم تعرفون الحزن •• ولكن أغانيكم في الحفلة كانت حزينة لدرجة لا تصدق •

ـ أجل •• حقا !

ـ لا أفهم السبب ؟

ـ كيف أفسر لك الامر ••

— أنكم أنت واصدقاؤك العراقيين تبدون مرحين . تشعون حيوية وبهجة . وتضفون جواً من المرح على كل مكان تتواجدون فيه . ولكن أغانيكم .. حزينه !

كيف يفسر لها ، لماذا هم مرحون الى هذه الدرجة ولماذا أغانيهم حزينه الى هذه الدرجة ؟ كيف يفسر لها ؟ بل كيف يفسر لنفسه ؟! ما هو السبب ؟ هذه المشاعر المتطرفه الى الجانبين .. لماذا ؟ هل هما وجهان لحقيقة واحدة ؟ ذلك الحزن المرهق العنيف وذلك المرح اللاهب الطاغي ؟ لماذا هم ليسوا مثل هؤلاء الناس الذين يفرحون بهدوء ويحزنون بهدوء ؟ أم أن مرحهم هو نوع من الحزن العنيف أو أن حزنهم هو نوع من المرح الطاغي ؟!

واولئك النسوه على الفرات اللاتي يرتدين عباءاتهن السوداء الصوفية السميكه ويذهبن الى المآتم ويبكين بذات الطريقة التي يزغردن بها في الافراح ويزغردن وراء جنائز القتلى بنفس الطريقة التي يولولن بها في اعراس بناتهن !! كيف يجد التفسير لكل تلك العواطف الفجة البدائية الساخنة والموغله في الشدة ؟ والأغاني الحزينة .. لماذا هي حزينة ؟ لانها شعبية ؟ وهل هي حزينة لانها كذلك ؟ كل شعوب الارض تألمت بطريقتها الخاصة ولكن لم يختزن

ي شعب الألم كما أختزنه ذلك الشعب على الفرات ولم ينفعل
ي شعب بألمه كما أنفعل به ذاك ! ولم يفرح ولم يحتفل ولم يعبد
ي شعب ألمه ، كما فرح واحتفل وعبد ذاك الشعب ألمه ! هناك على
لفرات !

ـ أحمد ... ! قالت ليديا

ـ نعم .

ـ لا زالت ذكرياتك حزينه ...

ـ أجل .

ـ وهل كل ذكرياتك حزينه ؟

ـ لا ... لا أظن !

ـ وهل نرقص .. ؟

ـ أذا شئت ...

ـ موسيقى الفالس ترتفع ...

ـ لا أجيد الفالس .

ـ ننتظر التانجو أذن ؟

ـ تنتظر ...

ـ لا زلت سلبيا ...

ـ أحاول الانتقال الى الطرف الايجابي ..

ـ الحزن عاطفه سلبيه .

ـ ألا هناك ...

ـ أين ... هناك ؟

ـ هناك ... على الفرات !

ـ وهل حزنكم جامح ؟

ـ كالحصان العربي !

ـ وهل كل عواطفكم كذلك ؟

ـ أيه عواطف ؟

ـ الحب .. مثلا ؟

ـ لا أدري .

ـ تخاف ؟

ـ مم ؟

ـ من .. الحب ؟

ـ أنا أخشى كل العواطف الشديده !

ـ بما فيها الحب .. طبعا ؟

ـ بما فيها الحب طبعا ؟

ـ وهل الحب عندكم عاطفه شديده ؟

ـ لم أجرب .

ـ لم تحب ؟

ـ لا أظن .

ـ رأيته .. ؟

ـ رأيته ... ولكني لم أتبينه جيدا !

ـ مسكين !

ـ لأنني رأيته ؟

ـ بل لأنك لم تتبينه .

ـ وهل هو مرعب الى هذه الدرجه ؟

ـ ماذا أقولُ .. ؟ ! أجابت بتساؤلٍ وقد القت بنظرة

ساهمه الى عرض البحر .

ـ لا تجيبين .. ؟

ـ وما أقول ؟

ـ هل هو مرعب ؟

ـ .... !

ـ يظهر أنك أنت الاخرى لم تتبينه ؟

ـ .... !

ـ وكم مره رأيته ولم تتبينه ؟

فأجابت ضاحكه :

ـ لا تجبرني على البكاء .. !

ـ أنت الأخرى لك ذكرياتك الحزينه ...

ـ وهل البكاء للذكريات الحزينه وحدها ؟

ـ هذا ما أود معرفته ؟

ـ أنني أبكي لكل العواطف التي تتحول الى ذكريات !

ـ فيلسوفه غامضه ... وغير صريحه !

— أنت الآخر لم تكن صريحا معي .

— وهل ماضيي يهمك الى هذه الدرجه ؟

— الى نفس الدرجه التي يهمك فيها ماضيي !

— خطأ ... أن ماضي الفتاه قضيه أخرى ...

— عند الشرقيين ...

— بل عند الجميع .

— وما الفرق بين الفتى والفتاه ؟

— آه ... هناك فروق تشريحيه ...

— الم أقل لك عند الشرقيين فقط فأنت كأي رجل شرقي .. !

— ربما أنت على حـق . فنحن ننظر للمسأله بتشديد خاص . ولكن صدقيني . كل الرجال سواء ، وما يتطلبه الرجال من المرأه واحد في كل العالم ، وأن كانوا يضطرون في بعض الأماكن لأعطاء التنازلات .

— ولماذا تنازلات .. ؟ أن الأنسان يتنازل عن حقوقه . وهذا الذي يعطيه الرجل ليس حقوقه ، بل حقوقنا التي نسترجعها أنت تنظر للمرأه وكأنها (شيء) خاص بالرجل ، يتحتم أن

يجده كامـلا وغير ملموس متى (تناولـه) . وهذه نظره برجوازيه خاطئه وهي في طريقها الى الزوال .

فقال أحمد مبتسما : يا للخساره ! !

ـ خسارة أن نكسب ما هو حق لنا ؟

ـ بل خسارة أن نخسر نحن ما هو حق لكم !

فضحكت والتفتت نحو الراقصين وقالت : ـ التانجو ...

ـ نرقص أذن ؟

ـ نرقص ...

فقام وأخذ بيدها واتجها نحو الراقصين ...

الفصل الحادي عشر

هذه البنت ... ليديا ... تحبها ؟ هل تحب هذه البنت ؟ الا تستطيع أن تفهم عواطفك أطلاقا ؟ وهل تبقى على عادتك غير الحميده ، لا تفهم عواطفك الا بصوره متأخره ؟ وألا كماض ؟ يجب أن تفهم .. الآن ! على الأقل لأجل أن تستمع بعواطفك بأوانها ، والا فماذا يجديك كل ما في الارض من ماء زلال وبيره ونبيذ لو أنك لم ترو غلتك .. بأوانها ؟ وهل أحلى من أن تريد ثم تجد ما تريد ؟ .. ولكن .. أتحبها حقا أم أنت تشتهيها كأنثى ؟ وهل ثمة حدود فاصله بين أن تحب وأن ترغب ؟ أن تحب يعني أن ترغب وتشتهي وأن ترغب وتشتهي يعني أن تحب ! اليس كذلك ؟ أم أن احدهما رغبة لاتنطفىء لانها رغبه روحية والثانية حيوانية لا تنطفىء لأنها أستنفذت نفسها بمجرد أن تحققت !! والاكل والشرب ... أيهما ... تشبه ؟ أنها ربما أقرب الى الحيوانية ، والتنفس هو الآخر ، ولكنها قضيه يوميه لا تذوي ولا تنتهي !!

ولكن هل تهم المسميات الى هذا الحد ؟ أنت أذن تحبها وتريدها وتشتهيها وكل ما في اللغه الانسانية من مترادفات أخرى أو متقاربه أنت تريد أن تراها يوميا .. أن تكلمها ، أن تسمع بوح عينيها ، أن ترى صدرها يرتفع ويهبط مع كل دفقة هواء صاعدة الى أعماقها ، أن ترى أشعة الشمس تلامس جسدها الطري على ساحل البحر ، تريد أن تنام معها ، تريد أن تسمع همس أنفاسها . كثير هذا الذي تريد ، ولا يهمك ما يطلق عليه من أسماء ، وأنت تحب فيها كل شيء ! هذه الغورة الفراتية في عينيها وهذا الشعر العربي الاسود ، وذلك الطبع العراقي النافر ، والنزق العراقي المتعب ، والجسد النحاسي اللامع كقطعة معدن نادرة في سوق الصفافير . كثير ذلك الذي تحب ، واكثر ذلك الذي تريد ان تعرف لتحب ايضا . يبدو ان أكواناً كاملة من الحب تفجرت في أعماقك ، وأنت تستطيع ان تبذر بدون ان تخشى عليها النفاذ ، ولكن ماذا أسميته ؟ حب ؟ فليكن حب او فليكن أشتهاء او فليكن رغبه .. ليكن أي شيء ، فكل ذلك له أسم واحد .. هي .. هي .. ليديا !!

كان أحمد ينبطح على رمال الساحل مغمض العينين ، أمواج البحر تصل الى قدميه بين اللحظة والاخرى واشعة الشمس

تندفق على جسده العاري المسمر ، لايكاد يسمع ضجة السابحين والسابحات وصراخهم الى جانبه تتمـد (لورا) صديقه ليديـا وفتاة نبيل ، وبجوارها نبيل ثم سليم .

منذ أسبوع تعارفا ، وها هو يفتقدها اليوم بكل كيـانه . البحر ليس البحر والشمس ليس الشمس والهـواء ليس الهواء ، وكل شيء ليس هو هو ، حتى هو لم يعد هو ! كما لو كانت ليديا روح كل الاشياء التي يتعامل معها ، وبذهاب ليديـا بقيـت كل الاشياء جثة هامدة ، بلا روح ! ايها الشرقي الابله العتيق الافكار، تنظر الى الاشى كأحط عاشق من العصـر الرومانتيكي . تغيرت الدنيا . قلب نظرك فيما حولك . كل الفتيـات خصـور ضامره وعيون لامعة وافخاذ متوردة .. وحيوية دافقة . أترى كيف ينظر كل هؤلاء الفتيان الذين حولك الى الفتيات ؟ لو غـابت فتـاة أحدهم ، أتتصور أنه ينطوي على حزنه يبكي الذكريات ، لست على الفرات أيها الغريب ! الا ترى كم هم مرحون هؤلاء الفتيان والفتيات اللذين يلعبون الكره واؤلئك الفتيان والفتيات الذين يسبحون ؟ الا ترى كم هم سعداء ومقبلون على الحياة ومنسجمون مع الجو ! هل تستطيع ان تعرف أيهن فتاة أيهم ؟ وأيهم فتى أيهنّ ؟

أنه القرن العشرون أيها العم ... العشرون قرن بعد المسيح ، العشرون الذي تحطمت فيه كل الحواجز بين الافراد واصبح الجميع عائلة تسكن في بيت صغير منزو أسمه الكرة الارضية ، يحاول ان يندمج بالكون الاكبر الذي يضم ملايين الشموس . وأنت تفكر بواحده فقط ، تأدبت وتنازلت عن العشرين قرن ، وكأي فتاة هناك على الفرات ، طلبت منك أجازة قصيرة أمدها نصف نهار . لتزور صديقتها في (جاجرا) ، وها أنت تجلس كشيخ كسول تتذكر أيامها وساعاتها وحولك القدود والخصور والنهود مائسه ضامره نافره ، فهلا فهمت ؟ وهل تبقى ذلك الشرقي الغشيم الذي يجب التوحيد ؟ أنك من القرن الذي أشرك بكل شيء .. فكيف بالنساء؟ ... يا أيها الروميو الذي نسي تقاليد أجداده السلاطين !!

ـ نبيل .. ؟

ـ نعم يا جناب أحمد آل محمد .. !

ـ الا نذهب ؟

ـ ولماذا نذهب ؟ لا زالت الساعة دون الحاديه عشرة !

ـ أذن أذهب وحدي .. !

جلس نبيل ثم نظر الى أحمد بأمعان :

أحمد .. مالك ؟

لا شيء . ولكني زهقت من الضجيج .

ولكنه ليس جديدا عليك ! ثم أردف بمرح :

أتسمي هذا ضجيجا يا أحمد آل محمد . هـذه الموسيقى العلوية الرائعة ، وهـذه الكركـرات السعيده للأنسـات الشقراوات المرحات ؟ أذن لابـد أن بأذنك وقر ! أو أنهـا مصفاة لا تسمح بالدخول الا للناشـز من الاصوات . آه نسيت ، فأذنك هنالك على الفرات متعوده على النهيق والثغاء والصهيل ، وربما لأجل ذلك لا تسمح الا بمرور الاصوات المشابهه .. !

عدل نبيل من وضع الخاولي تحته لأجل أن يعود لاستلقائته، ولكنه عندمـا رأى أحمد ينهض ، ترك الامر ونهض هـو الآخر .

جلست (لورا) قائله :

أحمد .. هل أنت ذاهب ؟

كانت (لورا) تلبس نظاره سميكه وتضع قطعه من الورق على أنفها لتمنع أشعة الشمس من أن تحرقه .

ـ أجل يالورا !

ـ ولماذا العجلة .. لا زال الوقت مبكرا !

ونهض سليم واحاط هو ونبيل بأحمد وارجعوه . قال سليم:

ـ كنت عادة لا تذهب قبل الساعة الثانية ؟ !

قال نبيل : أحمد ... هل السبب في غياب ليديا ؟

قالت لورا معلقه بمرح عندما سمعت أسم ليديا

ـ يا للحب المخلص !! مثل هذا الحب أصبح نادرا كطير بري !

قال سليم :

ـ الحمد لله .. وقع أخيرا !

قال أحمد :

ـ دعك من الهراء ..

قال نبيل :

ـ خذ مثلا من السيد سليم ، فها هو صلب كفحل التوث رغم مرور يومين على غياب جالينا !

قال سليم : كف عن السخريه !

ـ ومن قال أني أسـخر ؟ .. ولكنك لم تقل يا سليم الى أين

ذهبت ؟

أجاب سليم غاضا الطرف :

ـ ذهبت الى أقرباء لها على البحر الاسود .

ـ يا للنساء ؟ !

ـ ماذا تعني ؟

ـ قال المثل ضع الحيه في جيبك .. الخ ..

ـ .... ! !

ـ يا للغرابة ! ؟

ـ ماذا ؟

ـ لأول مره لم تنبري للدفاع عن النساء ..

ـ ... ! !

ـ وعن الاخلاص والوفاء والوحدانيه ؟

ـ وماذا يفيد معك ؟

ـ حقا .. حقا .. لقد دافعت بما فيه الكفايه ، ولكن يبدو أنهن لم يكن شاكرات للجميل بما فيه الكفايه ..

ثم التفت الى أحمد :

ـ أحمد أصدقني الجواب ... الى أي مرحله وصلت مع ليديا؟

ـ وماذا يهمك ذلك ... ؟

ـ يهمني جدا ، على الأقل لأجـل أن أقيس على ضوئـه مدى نشاطي مع صديقتها (لورا) .. ؟

ـ ذلك لا يهمني ..

ـ لا أتوقع منك الجواب طبعا ، كعادتك غير الكريمه ، ولكن لمعلوماتك فقط وللفائدة أقول لـك .. أني وصلت مـع (لورا) الى مرحلة أنعدام الوزن ...

ـ تهانينا ...

قالت لورا متضايقه وقد سمعت أسمها :

ـ كفى ثرثره بالعربيه ...

أردف نبيل وكأنه لم يسمعها :

ـ وقد أنطلق الى كوكب آخر ...

عقب أحمد :

ـ وقد تعود الى الكوكب الأم ..

ـ مضبوط ... باركك الله ..

ـ وعلام نويت ... حرسك الله ؟

ـ تلك قضيه تخص الكواكب نفسها ، وقوة الجاذبيه من أحدها الى الآخر .. ولكني ...

ثم صمت نبيل .

ـ نورنا ... رعاك الله ! قال أحمد

قال سليم :

ـ لعلها قنبله نوويه تجريبيه ؟ !

أجاب نبيل :

ـ ربما يا سيد سليم .. ربما .. وكما قلت لكم .. ولكني أتمنى لو يجتذبني الكوكب الأصلي .

ـ يا للتصريح الخطير ... أتعني لورا ؟

التفتت (لورا) نحوهم وثبتت الورقه على أنفها ، ثم أدارت نهم ظهرها . معرضه بطنها بأتجاه الشمس .

ـ والآن وقد كشفت لكم دخيلة نفسي أطلب أن تقابلوني بالمثل ...

قال أحمد ضاحكا :

ـ ومن طلب منك ذلك .. ؟

أستمر نبيل غير ملتفت الى أحمد :

ـ والآن فلنبتدأ بحضرتكم يا أستاذ سليم ... الى أين وصلت علاقتكم بجاليـا ؟ وحبذا لـو نورتمونـا عن التطورات الأخيره ...

أحمر وجه سليم وقال بشيء من الغضب :

ـ نبيل رجـاء كف عن الهذر ... فأنت لا يعرف جـدك من هزلك ، فضلا عن أن مثل هذه القضايا ، وخاصة مثل علاقتي بجالينا ، لا يجوز فيها الهزل !

ـ ومن قال أنني أهزل ؟ ! ... أنا فقط بأعتباري صديقك أريد أن أعرف سبب البرود بينكم في الفتره الأخيره . وثانيا أنا أطالب بالمقابله بالمثل ، وهـذا تقليد متفق عليه بين جميع الدول ... وهو من الأعراف الدبلوماسيه المحترمه ! !

ـ أرفض الأجابه ..

ـ هل تسمح لي أيها السيد أن أعتبر رفضكم جوابا بشكل ما ..

ـ تستطيع أن تعتبره ما تشاء !

ـ ... وأن أمضي في أستنتاجاتي الى النهايه ؟

ـ على هواك ..

ـ حسنا ، فالقضيه أذن كما يلي ... أنت لـم تصل بعد الى مرحلة أنعدام الوزن ولن تصلها مطلقا ... لانك لم تنطلق أصلا بل وحتى لـم تفكر في ذلك ولم تحدد أيـة أهداف مسبقه . وأنت أيها السيد سليم أبتدأت غزوتك لجالينا من الطرف المعاكس الذي أبتدأ به كولومبس اكتشافاته . فاذا كان كولومبس قد اكتشف العالم الجديد ظانا أنـه العالم القديم .. فأنت اكتشفت العالـم القديم ظانـا أنه العالم الجديد . أنه عالم نسل آدم القديم قدم القرود والزواحف..

أيها الكولومبس الفاشل المسكين ...

ـ الا تستطيع الا أن تتفلسف ... ؟

ـ الحب هو الذي لا يستطيع الا أن يتفلسف يا سيد سليم !

ـ وما دخل الحب هنا ؟

ـ الحب الحياه و ... جالينا يا أستاذ سليم !

ـ ولورا ... أيضا ؟

ـ في طريقهـا الى أن تكون ... لنرجـع الى حديث الحب الفلسفه . فأنت لم تكن تسعى ، عندما بدأت علاقتك أو

غزوتك لجالينا ، وراء شيئا ما محددا ... بل كنت تسعى وراء شكلا تجريديا روسيا أو أوربيا ، جديدا ، غريبا . وهكذا تم اكتشافك لنفس عالم الزواحف القديم أيها الكولومبس العتيد . واكتشفت أن العالم الأنثوي تحت الشعر الذهبي لجالينا لا يختلف في شيء عن العالم الأنثوي تحت فوطة (هيله) الفتاة القرويه في أعماق الهور .

ـ كل الأفكار عندك تتحول الى سياسه وكل السلبيات عند الأفراد هنا تترجمها أنت الى لغة السياسه ... يا لك من فكر رجعي سقيم !

ـ سمعت ذلك اكثر من مره من حضرتكم ... !

ـ هنا يتم خلق الانسان الاشتراكي الجديد !

ـ أنت الذي يترجم الأشياء الى مصطلحات سياسه . نحن نتكلم عن الحب !

ـ أنت تتكلم عن الحب بفكر سياسي رجعي !

ـ كفى أتهامات أيها السيد . أنتهينا منك . جاء دور السيد أحمد آل محمد . أعماق السيد أحمد غامضه كمجاهل أفريقيا ، ولكنها عذراء كمجاهل أفريقيا . ولا أقل من أن يكون السيد أحمد صريحا مع نفسه أذا لم يستطع أن يكون

صريحا معنا ، أنه يشبه البدوي الذي يضنيه الصدأ ومع ذلك لا يعترف أمام العشيره بأنه ظمآن . ويخجل من ذلك حتى أمام نفسه . يا أحمد آل محمد ليس عارا أن تجد نفسك ظمآنا وليس عارا أن تجد الماء وأن تشرب ... فلماذا هذا التعقيد ؟ أنت لم تقل لنا أي نوع من الماء تلك الدفقات الدافئه التي تصلك على شكل رسائل ... ولا أي نوع من الماء كان ماء فتاة الغابه الساحره ... وهل أرتويت ؟ ولا عن ظمأك الأخير .. أو تبعك الأخير ... ليديا ؟

— عدت ؟

— وسوف أعود دائما الى أن اكتشف مجاهل أفريقيا المتوحشه العذراء !

— تحدثت عن امريكا الزائفه وافريقيا المتوحشه فهلا حدثتنا عن آسيا العتيقه ... المجربه والحكيمه معا ؟

— بكل ممنونيه . أنا يا سيد أحمد بسيط كالصحراء منفتح كالصحراء ولكن عميق أيضا .. كالصحراء ! وكلما خيل اليك أنك وصلت النهايه ، أنفتحت أمامك آفاق جديدة عليك أن تقطعها ... لكي لا تصل الى النهايه .

— وهل (لورا) هي الاخرى .. آفاق ؟

ـ آه ... هنا بيت القصيد أذن ؟ ! ذلك سؤال عويص حقا . وأنا في هذه المرحله الجأ الى أساليبك الخالده في الزوغان من الجواب . فأنا لست متأكد ، بعد ، هل هي نهايه أم واحه في الطريق ، لا تلبث أن تمتد ورائها الآفاق ! !

ـ يا له من سؤال عويص !

ـ جدا يا سيد ... جدا ! !

الفصل الثاني عشر

عندما دلف نبيل الى الغرفة في الاصيل ، كان أحمد يلعب الشطرنج مع (اليكسي) . وكان قد أعطى على الرقعة تضحيات جسيمة ولكنه كان يجب ان يحقق النصر بنقلة كش واحده ، وبدا ملك (اليكسي) مكشوفا أمام الضربة الساحقة والاخيرة لأحمد .

قال نبيل بدون تحية :

ـ أحمد .. دقيقة ..

نظر احمد الى نبيل ، كان جاداً على غير عادته .

ـ أتنظر .. ! قال أحمد

ـ سترجع الى الشطرنج .

تبعه بدون ان يحاول اطالة النقاش . قال ببعض التوتر :

ـ ماذا هناك ؟

ـ أحمد .. أتدري مع من كانت ليديا في (جاجرا) ؟

أحس يد قاسيه تضغط على صدره وتمنع الهواء من أن يصل الى رئتيه . أجاب بصوت مهزوم :

— .. م .. ؟

— كانت مع ولد !

كل المرئيات تتشوش أمامه . زبد طافح مر يصل الى حلقومه ..

— من قال ذلك ؟ .

— لورا .. هي أخبرتها انها كانت مع ولد .. صديق قديم !

— ولماذا أتيت تقول لي ذلك ؟

— رايتك مندفعاً على غير عادتك ، فاردت أن تكون على دراية بمن ترافق .

— أم ..

يشعر بالاختناق . صدره أصبح لا يطاق . لو أنفجر لشعر بانراحة بالتأكيد . قلبه كشعل ، لهيبه رهيب يحرق ويحترق . كانت مع ولد آخر .. مع آخر ! أيها التعيس ! ما قولك الآن ؟ ماذا تقول ؟ عندما كنت تفكر بها في الصباح بكل كيانك ، كانت هي مع آخر .. وقديم ! ومن يدري ماذا حدثته عن انشرقي

المضحك ذو الافكار العتيقه ؟! لو كنت عطيل .. لو كنت تملك شجاعة عطيل ، لخنقتها كما خنق عطيل ديدمونه ، ولكنك تملك غيرة عطيل ولا تملك شجاعته ، والا لكنت صريحاً وركلت كل الاكاذيب عن المدنيه ، وانتقمت واطفئت هذا النحيح الرهيب في أعماقك ! أو اعملت ما عمله في قريتك (شمخي آل تايه) وذبح (كظيمه) كما تذبح الشاة ! أتذكر كيف رايت جسدها يتشنج في وسط القرية و (شمخي) يمسك خنجره الشطري المعقوف ويمسحه من الدم ؟! كيف كان جسدها يتشنج ؟ أتذكر ؟ كما تتشنج الدجاجة الذبيحة ... أو السمكة التي تختنق بالهواء الطلق !! ثم سكت جسدها الى الابد ، والقت عليها أحدى العجائز العباءة ! هل تملك الشجاعة لان تعمل ما عمله شمخي ؟ هو الاخر يعيش معك في هذا القرن العشرين! ومن قال انه كان يحس بالغيرة بأكثر مما تحس بها أنت، ويحب (كظيمه) اكثر مما تحب (ايديا) ؟ ألا زلت لا تفهم عواطفك ايها الضال ؟ أذن ما هذه الحرائق التي تندلع في صدرك ؟ هل قدر علينا ألا نفهم عواطفنا الا في حالات الضياع الكبرى ؟ لا نفهم الحب الا عند الموت أو الفراق أو ... الغيرة ؟ وها هي الغيرة تنهش صدرك ككلب مسعور ... هل

يمكن ان تكون عواطف الغيرة عند عطيل أو شمخي أو جدك أقوى من عواطفك الان ؟ هذه البنت الروسية الغريبة عن عالمك ، ها أنت تشعر بأنها شرفك العربي الرفيع والذي لا يسلم الا بأن يراق على جوانبه الدم ! .. الدم ؟ دم من ؟ دمها ؟ يا للسخافة ! وما لك ولها ؟! ولكنك تعرف أفكارها مقدماً .. وليست مرتبطة بك بأي أرتباط رسمي مما يتعارف الناس على تثبيته على الورق .. ليس بينكم أي ورقة ! ماذا تريد منها ؟ بل أنكما لم ترتبطا حتى شفاهاً .. لم تعدك بأي شيء ولم تعدها أنت بشيء ، فكيف تطالبها بالاخلاص ؟ ولكنك شرقي سخيف ، تتصور ان المرأة منحتك زمام أمرها وجعلت منك وصياً ، لمجرد أنها أبتسمت لك أو جلست معك أو حتى .. نامت معك . ما هكذا الأمور تجري أيها الآخ .. ما هكذا !! فبين شاطىء الفرات الذي تركته وراءك وشاطىء البحر الاسود الذي أمامك .. أجيال طويلة ! ! أم لعلك تتصور أنك ذلك البدوي الذي أجتاح رمال الصحراء ووصل الى الفرات وانتصب شاهرا سيفه الأبتر ، على الشاطىء متحدياً الكثبان ؟ أنت ذلك البدوي بالتأكيد ، ولكنك لست أمام الكثبان .. والشاطىء ليس للفرات ! فأعلم أيها البدوي

المكسور السيف والقلب بأنه ليس أمـامك الا ان تبتلع آلامـك وعواطفك وغيرتك على الشرف الرفيع ! ولكن هل في مقدورك ذلك ؟ هل تستطيع ؟ هل تستطيع ؟ ذلك هو السؤال !!

الفصل الثالث عشر

القطار ينطلق بهم الى الشمال بأتجاه موسكو • سهول وغابات الروسيا تبدو خضراء رائعة ، اذ تنعكس عليها شمس الصباح الهادئة • أحمد ونبيل وسليم لا زالوا يستلقون في مقصورتهم ، ويتابعون (البانوراما) الساحرة من وراء زجاج نافذة القطار •

ـ وصلنا النصف الشمالي من الكرة الارضية • علق سليم •

صمت • ثم قال نبيل بعد حين بدون ان ينظر الى سليم :

ـ لقد كنا دائما في النصف الشمالي ، فالعراق ايضا شمال خط الاستواء •• وكذا البحر الاسود !

صمت • صوت عجلات القطار يرتفع بوقع رتيب كموسيقى باهتة :

قال نبيل :

ـ سنصل موسكو في الساعة السادسة مساء !

قال سليم :

ـ ملات القطار •• منذ ١٤ ساعة ونحن نسافر تحطمت أعصابي من هذه الاصوات الميكانيكية الرتيبة ، والاهتزازت الرتيبة

•• كم أنا مشتاق الى موسكو !

فأجاب نبيل متسائلا :

ـ الى موسكو •• ام الى الساكنه في موسكو ؟

ـ اليهما معا •• !

ـ لا أفهم ••• لماذا سبقتك جالينا الى موسكو ••• الم يكن المخطط له •• أن ترجع معك ؟

قال نبيل ذلك وهو ينظر الى سليم نظرات متفحصه

أجاب سليم :

ـ كان مزاجها عكراً بعض الشيء •• آ ••• أنت تعرف النساء ونزوات النساء •• !

أجاب نبيل بنبره ذات معنى :

ـ أعرفها جيدا ••• وأحمد هو الآخر يعرفها ••• فقال أحمد الذي كان الى ذلك الوقت صامتا ينظر الى الغابات الروسيه:

ـ ليس اكثر مما تعرفها أنت على أي حال •• فأنت خبير

ـ أعترفت الآن •• ؟

ـ وهل أستطيع الا أن أفعل ؟ !

ـ متى تعود ليديا الى موسكو ؟

ـ في قطار اليوم •

ـ أحمد ••• أين قضيتما الليله التي غبتما فيها قبل خمسة أيام•

— ... آ ...

— لقد عدت أنت محطما .. وعادت هي مقطبه ومصفرة الوجه ؟

— ... !

— هل حققت معها بما قلت لك ؟

— ولماذا تريد أن تعرف ؟

— مجرد فضول .

— ... !

— هل أنتهت علاقتك بها بعد الذي عرفت ؟

— ... !

— ومع ذلك فقد كانت علاقتكما في الايام الاخيره كالجثه التي ينوء بحملها الاثنان ، ومع ذلك لا يتركانها ..

— ... !

— أحمد ... أتريد أن اكشف لك سراً ؟

— م ... ؟ ! تطلع أحمد بفضول

— لقد كذبت عليك !

— ماذا ؟

— لم تقل لي لورا أي شيء ... ولكنك تعرف رأيي بالنساء ، ولأنها سافرت فقد أستنتجت أنها ذهبت الى لقاء مع صديق قديم .

ـ أيها المجنون ! !

ـ ربما .. ولكن هذا لا زال أحتمالا قائما .

قال سليم بغضب :

ـ يا لها من طريقه لا أخلاقيه ... هل هذا مزاح أم ماذا ؟

ـ ومع ذلك فليس الأمر بدون أساس أيها السيد سليم . فـلا توجد فتاة هنا لا تملـك د زينه من الاصدقـاء القدماء . ولكنك شرقي خيالي .

قال أحمد بتسليم :

ـ ربما كنت على حق !

قال نبيل بأنتصار :

ـ أذن أصبت الهدف بدون أن أعلم ؟ ! وانا الذي كنت احمل شعوري بالذنب كما حمل المسيح صليبه .

ـ لم تصب الهدف تماما ...

ـ كنت قريبا منه أذن ؟

ـ ... !

ـ تكلم أيها الرجل فقد تألمت كثيرا من أجلـك ، ولكني كنت أؤمن بأنني كان يجب أن أقول ذلك . كان يجب أن تسير مفتوح العينين .

ـ ماذا يهم الآن أي شيء !

ـ أحمد .. هل تحبها ؟

ـ لا أدري !

ـ وهل ستلتقي معها في موسكو ؟

ـ لا أدري !

ـ وهل تحب ذلك ... أعني أن تلتقي معها ؟

ـ أجل .

ـ يا لها من معركه طريفه تلك التي سوف نشهدها والتي سوف يكون ميدانها قلبكم الكريم .. الصراع بين عطيل الجبار وروميو المدله ... بين تقاليد الشرق القديمه والمتينه وبين حب الشرق العميق والحارق ... ترى لمن تكون الغلبه ؟

قال سليم ـ الغلبه للحب العميق !

قال نبيل ـ أو للتقاليد العريقه !

قال أحمد ـ وقد لا تكون لايهما !

قال نبيل ـ كيف يا أحمد ... هل هو قرار ؟

ـ كلا ولكني معكما ... أطرح أحد الاحتمالات الثلاثه .

ـ .. ولايهما تتمنى الانتصار ؟

ـ للاقوى .

ـ وفسر الماء ... وأيهما تتمنى أن يكون الاقوى ؟

ـ أنها حلقه مفرغه .

ولفهم الصمت مرة أخرى وعادت موسيقى العجلات تملأ المقصوره.
قطع نبيل الصمت قائلا :

ـ لورا الآن في شقة أمها في موسكو ... أنها الآن في فراشها، ولا زالت في منتصف المسافه بين اليقظه والنوم ، تحلم بأميرها الشرقي ، الذي يسعى اليها بلهفه ...

قال سليم :

ـ ليت شعري من منا المدله ؟

ـ أنا مدله مفتوح العينين .. وبعضهم مدله مغمض العينين . وشتان بين الاثنين .

ثم أردف بعد صمت قصير :

ـ أتريد الحقيقه ؟ .. لست على ثقه من شيء !

ـ من أي شيء ؟

ـ من كل شيء ! !

ـ يا للتصريحات الخطيره ... لأول مره أراك فاقداً الثقه بنفسك .

ـ نحن لا نحب لأننا نريد ذلك .

ـ حكمه ! !

ـ لقد حدث ذلك بدون علمي !

ـ كنت مغمض العينين ؟

ـ لابد ... والا فكيف حصل بدون علمي ... لأول مره لا أشعر بالثقه بالنفس .

ـ الحمد لله ... وأخيراً ! !

ـ كنت واثقاً من نفسي اكثر من ثقتي بعالم أحمد آل محمد الفراتي الغامض ... ولكني فقدت الثقه بنفسي وأن كنت لا أزال والحمد لله ، واثقاً من غموض عالم أحمد آل محمد.

ـ أنا لست على ثقه من غموض عالمي !

ـ المهم أنني على ثقه . والا فكيف أستطيع تفسير علاقتك بليديا ؟ والليله التي قضيتماها .. لا أدري أين ؟ والهمسات الحائره ... واللفتات المحمومه ... وقبلها فتاة الغابه .. ثم لغز الرسائل ؟ كيف أستطيع فهم هذه الالغاز ؟

ـ أنها ليست الغاز مطلقاً !

ـ أذن ... فسرها !

ـ ... !

ـ الغاز !

يمكن ان تكون عواطف الغيرة عند عطيل أو شمخي أو جدك أقوى من عواطفك الان ؟ هذه البنت الروسية الغريبة عن عالمك ، ها أنت تشعر بأنها شرفك العربي الرفيع والذي لا يسلم الا بأن يراق على جوانبه الدم ! .. الدم ؟ دم من ؟ دمها ؟ يا للسخافة ! وما لك ولها ؟! ولكنك تعرف أفكارها مقدماً .. وليست مرتبطة بك بأي أرتباط رسمي مما يتعارف الناس على تثبيته على الورق .. ليس بينكم أي ورقة ! ماذا تريد منها ؟ بل أنكما لم ترتبطا حتى شفاهاً .. لم تعدك بأي شيء ولم تعدها أنت بشيء ، فكيف تطالبها بالاخلاص ؟ ولكنك شرقي سخيف ، تتصور ان المرأة منحتك زمام أمرها وجعلت منك وصياً ، لمجرد أنها أبتسمت لك أو جلست معك أو حتى .. نامت معك . ما هكذا الامور تجري أيها الآخ .. ما هكذا !! فبين شاطىء الفرات الذي تركته وراءك وشاطىء البحر الاسود الذي أمامك .. أجيال طويلة ! ! أم لعلك تتصور أنك ذلك البدوي الذي أجتاح رمال الصحراء ووصل الى الفرات وانتصب شاهرا سيفه الأبتر ، على الشاطىء متحدياً الكثبان ؟ أنت ذلك البدوي بالتأكيد ، ولكنك لست أمام الكثبان .. والشاطىء ليس للفرات ! فأعلم أيها البدوي

حال

كان القطار يقترب من (روستوف) التي تغمرها شمس الضحى ، وكان نهر الدون يلتف حولها من الجهه الشرقيه بثقه مطلقه ، وشعر أحمد بحنين غامض نحو النهر الذي فيه الكثير من هدوء الفرات ووقاره وأن كانت تنقصه السمة الفراتيه الحاده على الشواطيء .

ثم أبتعد القطار عن (روستوف) وعن الدون الهادىء . شعر أحمد أنه ترك خلفه كل ما يذكره بالفرات . القى نظره أخيره الى الدون .. ثم فجأة قفزت الى مخيلته عينا ليديا بفورتهما الفراتيه ؛ فعدل من استلقائته ونظر بأتجاه سير القطار ... !

تموز / ١٩٧٠

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٦٣٠ لسنة ١٩٨٨

٣٠٠٠ / ١٢ حزيران ١٩٨٨

مطبعة عصام ـ بغداد ـ هاتف ٤١٥٤٥٨٢